الموسوعة التاريخية
للخلفاء الفاطميين

١٠

الآمر بأحكام الله

تأليف: الدكتور عارف تامر

دار دمشق
دار الجيل

الموسوعة التاريخية
للخلفاء الفاطميين

الخليفة العاشر:

الآمر بأحكام الله



تأليف

عارف تامر
دكتور في الآداب



دار الجيل

الطبعة الاولى

١٩٨٠ م ـ ١٤٠٠ هـ

الخليفة الفاطمي العاشر

اسمه : الآمر بأحكام الله . . . لقبه : المنصور . . . كنيته : أبو علي . ولد يوم الثلاثاء في الثالث عشر من شهر محرَّم سنة ٤٩٠ هـ . بويع في الخلافة وهو طفل له من العمر خمس سنين وأشهر وأيام، وذلك بعد وفاة والده «المستعلي بالله».

في السابع عشر من صفر سنة ٤٩٠هـ. أحضره «الأفضل» ونصّبه مكان أبيه ، كما أخذ له البيعة من الناس ، وذكر أنه أركبه فرساً ووضعه في حجره ومرَّ به في شوارع القاهرة على مرأى من الجماهير المحتشدة لتحيته . وهكذا ظلّ «الأفضل» قائماً بالوصاية على الآمر من جهة . وعلى شؤون الدولة من جهة أخرى حتّى وقت اغتياله من قبل «النزارية» ليلة عيد الفطر سنة ٥١٥ هـ . مدة بقاء الافضل في الحكم تسع وعشرون سنة وثمانية أشهر ونصف ، ومات عن أربع وثلاثين سنة وتسعة أشهر وعشرون يوماً .

بعد اغتيال « الأفضل » استوزر الآمر بأحكام الله « محمد ابن فاتك البطائحي » ولقبه « بالمأمون » وقد ظل في الوزارة حتى وقت اغتياله أيضاً سنة ٥١٩هـ. وعندئذ تفرّغ الآمر لشؤون الدولة ، واستغنى عن الوزارة نهائياً ، غير أنه استخدم ما يسمّى بالمستشارين وأهمهم : « جعفر بن عبد المنعم » وآخر سامري اسمه « أبو يعقوب إبراهيم » وكان إلى جانبهما راهب اسمه « ابن نجاح » ، وهذا الراهب تحكّم في الناس . وتمكّن من السيطرة على الدواوين، وعيّن النصارى وحقق مطالبهم ثم أخذ في مصادرة الأموال الغير مشروعة ، وهكذا بقية المباشرين والعاملين والضمناء والعمال ، وقد عمّ ضرره جميع الرؤساء والقضاة والكتّاب ، بحيث لم ينج أحد من ضرره . ولما تفاقم أمره قبض عليه الآمر ، وظلّ يضرب في النعال حتى مات ، ثم جرّ إلى كرسي الجسر، وسُمّر على لوح وطرح في النيل .

توفي الآمر بأحكام الله يوم الثلاثاء ١٤ ذي القعدة سنة ٥٢٤ هـ . عندما وثب عليه جماعة من المسلمين وقتلوه،وقيل أنهم من « النزارية » .

صفاته

كان كريماً سمحاً كثير النزهة محباً للمال والزينة ، وكانت أيامه كلها لهواً وعيشة راضية لكثرة عطائه وعطاء حواشيه بحيث لم يوجد بمصر من يشكو زمانه البتة ، إلا أن أعمال الراهب « ابن نجاح » وما بدر منه من أعمال سيئة قبّحت سيرته بين الشعب ، وذهبت بمحبة الناس له .

كان أسمر شديد السمرة يحفظ القرآن . ويروي تاريخ العرب والشعر ، وقد اشتهر بأنه حدّد رسوم الدولة وأعاد إليها بهجتها بعدما كان الأفضل قد أبطل ذلك ، ونقل الدواوين والأسمطة من القصر بالقاهرة إلى دار الملك بمصر .

وكان يركب للنزهة دائماً وخاصة يومي السبت والثلاثاء . ويتجوّل في أيام النيل بحرمه إلى « اللؤلؤة » على الخليج وهو من قصور الفاطميين المشهورة .

في أواخر أيامه وقع غلاء أقلق الناس ، وفي أيامه ملك الصليبيون العديد من المعاقل والحصون في سواحل الشام، ومنها عكا سنة ٤٩٧ هـ . وغزة سنة ٥٠٢ هـ. وطرابلس في نفس العام، وبانياس وجبيل وقلعة تبنين ، وهكذا صور سنة ٥١٨ هـ .

ذكر التاريخ :

إنه عمّر الهودج بالروضة ، والدكة ببركة الحبش وتنيس ودمياط كما جدّد قصر « القرافة » وأضاف : بأنه بنى على المنظرة التي يقال لها : بئر دكة الحركاة » منظرة من خشب مدهونة فيها طاقات تشرف على خضرة « بركة الحبش» وصوّر فيها الشعراء . . . كل شاعر وبلده . واستدعى من كل واحد منهم قطعة من الشعر في المدح ، وكتب ذلك عند رأس كل شاعر ، وبجانب صورة كل منهم رف لطيف مذهّب . . . فلما دخل الآمر وقرأ الأشعار أمر أن يحط على كل رف صرة مختومة فيها خمسون ديناراً، وأن يدخل كل شاعر ويأخذ صرته بيده ، ففعلوا ذلك ، وأخذوا صررهم وكانوا عدة شعراء .

إن مثل هذه المظاهر ، وهذا التكريم للشعراء يعود إلى أن الآمر كان شاعراً مجيداً وقيل ان له ديواناً مع التراث الفاطمي . ومن أشعاره :

دعِ اللوم عني لست مني بموثقِ
فلا بدَّ لي من صدمة المتحقّقِ
واسقي جيادي من فراتٍ ودجلةٍ
وأجمع شمل الدين بعد تفرقِ

ومن شعره :

أما والذي حجّت إلى ركن بيته
جراثيم ركبانٍ مقلّدةٍ شهبـا
لأقتحمنّ الحرب حتى يقال لي
ملكت زمام الحرب فاعتزل الحربا
وينزل روح الله عيسى بن مريم
فيرضى بنا صحباً ونرضى به صحبا

كلمة لا بد منها

هذا الجزء هو العاشر والأخير من الموسوعة التاريخية للخلفاء الفاطميين ، وهو خاص بالآمر بأحكام الله ابن المستعلي بالله ، وهذان الخليفتان تسلّما الحكم بطريقة الاغتصاب ، وبدون نص شرعي ، وبالرغم من هذا فقد خصصنا لكل منهما جزءاً خاصاً به كباقي الخلفاء الذين سبقوهما . . . أمّا بعد الآمر بأحكام الله فإن وضع الخلافة الفاطمية قد تغيّر ، فالآمر مات مقطوع النسب ، وقيل أن امرأته كانت حاملاً وقت وفاته ، وأنها أنجبت طفلاً سموه « الطيّب » ولكن هذا الطفل الغريب ما كاد يبصر النور حتى دخل كهف الستر على أن يعود للظهور عندما يحين الوقت ، هذا ما تقول به « المستعلية — البهرة » وهذا ما ترويه الأساطير .

بعد الآمر بأحكام الله تسلّم شؤون الدولة الفاطمية « الحافظ » وهو من الأسرة الفاطمية ولكنه لا ينحدر من

الأئمة الخلفاء وكانت مهمته هي «الوصاية» على الطفل الغائب «الطيّب» أو ما يعرف بالتعبير الإسماعيلي «نائب غيبة». وبعد الحافظ جاء الظافر ثم الفائز وأخيراً العاضد الذي تمّ بعهده سقوط الدولة الفاطمية واستيلاء «صلاح الدين الأيوبي» على مصر وربطها بالعباسيين. ونحن عندما نأتي على ذكر هؤلاء «الأوصياء» الأربع مع إيراد لمحة عنهم فلكي نعطي القارىء إمكانية الاطلاع على كافة الجوانب في الدولة الفاطمية.



الوزير ابن البطائحي المأمون

عندما قتل « الأفضل بن بدر الجمالي » وزر ابن البطائحي للآمر بأحكام الله وذلك سنة ٥١٥هـ. ولقب : « بالأجل المأمون تاج الخلافة وجيه الملك فخر الصنائع ذخر أمير المؤمنين » ، ولم يستوزر الآمر أحداً بعد قتل المأمون بل استعان ببعض المستشارين . وعلى رأسهم الراهب « ابن نجاح بن قنا » ولقب « الأب القديس الروحاني النفيس ، أب الآباء سيد الرؤساء مقدم النصرانية ، وسيد البطركية ، وثالث عشر الحواريين » .

اختلف المؤرخون في نشأة ابن البطائحي ، فذكر بعضهم بأن أباه كان من عملاء الأفضل في العراق ، فمات ولم يخلف شيئاً فتزوجت أمه وتركته فقيراً ، فاتصل بأحد معلمين البناء في مصر ، ثم صار يحمل الأمتعة بالسوق الكبيرة ، فدخل مرة إلى دار الأفضل فرآه خفيفاً رشيقاً حسن الحركة حلو الكلام فأعجبه وسأل عنه فقيل هو ابن فلان . . . وهكذا استخدمه

مع الفراشين ثم تقدم عنده وكبرت منزلته وعلت حتى صار أخيراً وزيراً خلفاً له .

ولكن المؤرخ المقريزي يدحض هذه القصة ويقول :

إنه من أعيان المشارقة وإن والده هو : الأمير نور الدين أبو شجاع فاتك بن الأمير منجد الدولة أبي الحسن مختار بن الأمير أمين الدولة أبي علي حسن بن تمام المستنصري . وكما نرى فإنه من بيت شغل أفراده المراكز العليا واتصلوا بخدمة الخلفاء ، وقد مات والده سنة ٥١٢هـ. وابنه في خدمة الأفضل . وذكر :

إنه وهو في سن الثانية عشرة كان من جملة خاصة « المستنصر بالله » وكان يرسله إلى بيت المال وخزانة الصاغة في مهمات مختلفة فيجد من النهضة والأمانة . فيقول هذا المأمون . . . ومنذ ذلك الوقت عرف بالمأمون .

بعد ذلك اتصل بخدمة الأفضل وظلّ يعاونه حتّى قتل . فقلّده الآمر بأحكام الله « الوساطة » وهي دون الوزارة ثم أعطاه الوزارة سنة ٥١٥ هـ . فدبر الأمور وظلّ حتّى قبض عليه سنة ٥١٨ هـ . مع أخوته الخمسة وثلاثين من أهله وخواصه وظلّ معتقلاً حتّى صلب مع أخوته سنة ٥٢٢ هـ . وذكر في سبب اعتقاله آراء مختلفة منها :

إنه بعث إلى « الأمير جعفر بن المستعلي » أخ الآمر يغريه بقتل أخيه مع الوعد بإيصاله إلى سدة الخلافة . وذكر بعضهم :

إنه سمّ مبضعاً ودفعه لفصاد الخليفة الآمر فعلم بذلك ، واتهم بأنه كان يدعي الخلافة ويقول أنه من ولد « نزار » من جارية خرجت من القصر وهي حامل ،وقيل انه اتهم بأنه هو الذي دبّر مقتل الأفضل وأولاده وأولاد أخيه الأوحد والمظفّر وكانوا نحو مائة ذكر ما بين كبير وصغير (يجب أن نذكر هنا أن الأفضل هو الذي قتل نزار ابن الخليفة المستنصر بالله ، والولي للعهد الفاطمي الشرعي وأولاده وأخوته) .

ذكر التاريخ :

بأن الآمر بأحكام الله وضع ثقته التامة بالمامون لدرجة أنه أنابه عنه في خطبة شهر رمضان في جامع القاهرة وجامع طولون وجامع مصر وأطلق يده في شؤون إدارة الدولة ، وبالفعل قبض بيد من حديد على الأوضاع العامة ، وعرف بأنه كان من ذوي الآراء والمعرفة التامة بتدبير الدول ، كريماً واسع الصدر . سفّاكاً للدماء شديد التحرز كثير التطلع إلى أحوال الناس والجند والعامة ويكره الواشين والسعاة بالناس في أيامه .

ذكر التاريخ :

إنه كان يُصرف للمأمون البطائحي في السنة عشرون ألف اردب قمح وشعير . ومن الغنم برسم مطابخه ثمانية آلاف رأس . وهذا غير الحيوانات والأحطاب كما كان يصرف له من البخور ما بيانه في الشهر قد مثلت بخمسة عشر مثقالاً وعود صيفي ستون درهماً ، وعنبر خام ستة مثاقيل . وكافور ثمانية دراهم وزعفران عشرة دراهم ومائة وردو خمسة عشر رطلاً . . . أمّا راتبه الشهري من بيت المال فهو ثلاثة آلاف دينار .

وعندما قبض الآمر بأحكام الله عليه سنة ٥١٩ هـ . وجد له سبعون سرجاً بالذهب الخالص . ومائة صندوق مملوءة كسوة بدنه ، ووجد لأخيه « المؤتمن » أربعون سرجاً محلّى بالذهب ، وثلاثمائة صندوق فيها كسوة بدنه ، ومائة سلة ما بين بلور محكم وصيني لا يقدّر أثمانها . ومائة برنية مملوءة كافوراً ومائة سفط مملوءة عوداً ، ومن ملابس النساء ما لا يحد ، وقد حمل كل هذا إلى القصر .

وسكن المأمون بدار سميت بالدار المأمونية ، وهو في مجال البناء والعمران كان من أنشط الوزراء وأكثرهم اهتماماً ،

فقد أقام العديد من المساجد والمشاهد والمناظر ، واختط طريقة عملية في إعادة بناء ما تخرّب من مصر والقاهرة خلال الشدة العظمى ، فأمر بالنداء في القاهرة ومصر ثلاثة أيام بأن كل من له دار خربة أو أرض فضاء فعليه أن يعمرها أو يؤجرها لمن يعمرها ، ومن تأخر عن ذلك فلا حق له فيها، وأباح الناس تعمير كل أرض فضاء سواء الأراضي التي عجز عنها أصحابها أو الأراضي الداخلة في أملاك الدولة .

ومن أجل المنشئات المعمارية التي بقيت من عهد المأمون الجامع « الأقمر » الذي بناه الآمر بإشرافه ويعد من مفاخر العمارة الفاطمية ، ويمتاز بأنه من المساجد المعلقة ، إذ بنى تحته حوانيت والحق به حوضاً لشرب الدواب ، وواجهته الغربية أول واجهة من الحجر وتشتمل على مقرنصات وعقود مخمّصة وتحفل بالنقوش والكتابة الكوفية ، والظاهرة الثانية في هذا المسجد هي المحراب المقرس .

وكان المأمون يجلس للمظالم يومي الاثنين والخميس من كل أسبوع ولتحقيق العدالة كتب لجميع الولاة بمطالعته في مستهل كل شهر بأسماء المسجونين والسبب الذي أوجب اعتقالهم ، وذلك لأنه كان قد وقف على تصرفات بعض الولاة وتعدياتهم على الكثير من الأبرياء .

وذكر التاريخ :

أنه ابتكر ما لم يسبقه إليه أحد . . . إذ استعمل « ميقاط » حرير أي « حبل » فيه ثلاث جلاجل ، وفتح طاقة في الروش من سور داره وصار إذا مضى شطر الليل وانقطع المشي طرحت السلسلة ودلّى « الميقاط » من الطاق وعلى هذا المكان جماعة يبيتون تحته من المغاربة ، فمن حضر من الرجال والنساء متظلماً يشد رقعة في الميقاط بيده ويحركه بعد أن يقف من حضر على مضمون الرقعة ، فإن كانت شكوى لم يمكنوه من رفعها ، وإن كانت ظلامة مكنوه من ذلك وتعوّق صاحبها إلى أن يخرج الجواب .

« وكان القصد من ذلك أن من حادث به ضرر من أهل الستر أو كانت امرأة من غير ذات البروز لا تحب أن تظهر ، أو كانت مظلمة في الليل تتعجل مضرتها قبل النهار فليأت لهذا الميقاط » .

كان المأمون يخشى من الجيش « الأرمني » الذي نظّمه الأفضل ، كما كان يخشى هذا الجيش من أن يثور عليه ، فأنشأ فرقة خاصة جعلها حرساً له وقد سمّى هذه الفرقة « المصامدة » لأن قائدها كان « عبد الله المصمودي » وهذه

الفرقة ألحقت بالجيش الفاطمي وأصبحت جزءاً منه ، وكان لها حارة في القاهرة عرفت بحارة « المصامدة » وقد ذكر أن أفرادها من « البربر » الذين وفدوا إلى مصر مع الخليفة المعز لدين الله .

وأخيراً :

في عهد الآمر أي سنة ٥١٧ هـ . قدمت على الوزير المأمون رسل « طغتكين » صاحب دمشق ، « وآق سنقر » صاحب حلب للاجتماع على حرب الصليبيين فبادر المأمون وجهز جيشاً برّياً جعل على رأسه « حسام الملك البرقي » واتبعه بأسطول حربي مؤلف من أربعين قطعة . وتوجه الجيش والأسطول إلى عسقلان ولكن هذه الحملة باءت بالفشل ، واضطرّ المأمون سنة ٥١٧ هـ . إلى تسليم مدينة صور إلى « طغتكين » صاحب دمشق لعدم استطاعة الدولة الفاطمية الدفاع عنها ضد الصليبيين .

الوصي الاول الحافظ

اسمه : عبد المجيد . . . لقبه : الحافظ لدين الله . . .

كنيته : أبو الميمون . ولد بعسقلان سنة ٤٦٧ هـ . وذلك لمّا أخرج الخليفة « المستنصر بالله » ابنه أبا القاسم مع بقية أولاده في أيام الشدة ، ولهذا كان يقال له في أيام « الآمر بأحكام الله » « الأمير عبد المجيد العسقلاني – ابن عم مولانا ».

مدة حكمه ثمانية عشر سنة وأربعة أشهر وتسعة عشر يوماً ، ومات عن عمر يناهز السابعة والسبعين عاماً أي سنة ٥٤٤ هـ .

•

في عهده وقعت حوادث عنيفة وشدائد . . . كان حازماً وسياسياً ليّناً كثير المداراة عارفاً بالأمور ، جمّاعاً للمال ، مغرماً بعلم النجوم . . . ويغلب عليه الحلم .

ذكر التاريخ :

إنه لمّا قتل « النزارية » الخليفة الآمر بأحكام الله ، أقام « برغش » و « هزار الملوك » الأمير عبد المجيد في قصر الخلافة ولقّباه « بالحافظ لدين الله » وأن يكون كفيلاً « لمنتظر » من زوجة الآمر . . . واستقرّ « هزار الملوك » بالوزارة ولكن الجيش ثار وأقام « أحمد بن الأفضل » المعروف « بكتيفات » لأن ذلك الجيش بالرغم من مضي عشرة أعوام على وفاة الأفضل ظلّ على ولائه لآل بدر الجمالي ، وفي ذلك الوقت اجتمع في ساحة ما بين القصرين خمسة آلاف فارس وراجل وعلى رأسهم « رضوان بن ولخشي » فنادوا « بأحمد بن الأفضل » وقالوا : هذا هو الوزير بن الوزير ثم قتلوا « هزار الملك » ونهبوا أحد شوارع القاهرة الرئيسية .

وبعد أن تسلّم « أحمد » شؤون الوزارة سنة ٤٢٥ هـ . قبض على « الحافظ » وسجنه مقيداً ، وأخذ بالتفتيش على الطفل المزعوم « الطيّب » وكان يريد قتله . كما أنه ألغى الكثير من الشعائر الفاطمية واستعاض عنها بالدعاء « للقائم المنتظر » . ولكن عهده لم يطل أكثر من عام لأن « يانس » تمكّن من قتله سنة ٥٢٦ هـ . وإخراج الحافظ من سجنه وإعادته إلى القصر .

بعد خروج الحافظ من السجن كان أول عمل قام به

هو : أخذ البيعة لنفسه على أنه الخليفة وإمام الزمان . . . وفي هذه المدة حدث انشقاق في الفرقة « المستعلية » فانقسمت إلى فرقتين :

فرقة الحافظية ، وفرقة اعتبرته مغتصب حق « الطيّب » فعرفت بـ « لطيبة » وهنا خرجت بلاد اليمن عن طاعة الحافظ لأن ملكة اليمن « أروى الصليحي » رفضت الاعتراف بخلافته ، وبعض المصادر تذكر أنها كانت ميّالة إلى « النزارية »

بعد « أحمد بن الأفضل » استوزر الحافظ « يانس » صاحب الباب ، إلى أن هالك بعد توليه بمدة تسعة أشهر ، ومن المعروف أن الحافظ لم يستوزر بعده أحداً بل تولّى الأمر بنفسه حتّى سنة ٥٢٨هـ. فأقام ابنه « سليمان » مقام وزير ولكن أيامه كانت قصيرة ، فبعد شهرين مات ، فجعل ابنه الثاني « حيدره » مكانه . ولكن ابنه الثالث « حسن » حنق عليه وثارت الفتنة فقتل « الحسن » وبعد مقتله ثار « بهرام » الأرمني واستولى على الوزارة بالقوة سنة ٥٢٩هـ. وكان نصرانياً فاشتد ضرره على المسلمين ، فقام « رضوان بن ولخشي » وكان يتولّى « الغربيّة » فجمّع الناس لحرب بهرام وسار إلى القاهرة وباشر قتال « بهرام » الذي انهزم ، فدخل « رضوان » القاهرة واستولى على الوزارة سنة ٥٣١ هـ . فأوقع بالنصارى

وأذلهم . . . وطمحت نفسه إلى حد الإطاحة بالحافظ قائ عنه : « ما هو بخليفة ولا إمام . . . انه كفيل لغيره وذلك لا يصح » فصبر عليه الحافظ إلى أن تمكن من هزيمته وإسقاطه ، فخرج إلى الشام ثم عاد سنة ٥٣٤ هـ . ولكن الحافظ جهّز الجيش وأرسله لمحاربته فانهزم الى الصعيد بعد عدة معارك، وهناك قبض عليه واعتقل .

وفي سنة ٥٤٢ هـ . خرج « رضوان » من معتقله بالقصر من ثقب وثار بجماعة مؤيدة له ولكنهم تمكنوا من قتله .

ذكر المؤرخ المقريزي :

بأنه لما مات الوزير « يانس » تولّى الحافظ الأمور بنفسه ولم يستوزر أحداً وأحسن السيرة ، ثم أنه عهد إلى ولده « سليمان » وكان أكبر أولاده وأحبهم إليه فأقامه مقام الوزير ، ولكنه مات بعد شهرين فجعل مكانه أخاه « حيدرة » في الوزارة ونصّبه للنظر في المظالم ، فشقّ ذلك على أخيه « الحسن » وكان كثير المال متسع الحال له عدة قرى ومواشي وحاشية وديوان مفرد ، فسعى في نقض ذلك بأن أوقع الفتنة بين الطائفتين : « الجيوشيّة » و « الريحانيّة » فاشتعلت نيران الحرب بين الفريقين وقتل بينهما ما يزيد على خمسة آلاف

نفس ، فكانت هذه الواقعة أول مصائب الدولة الفاطمية في جيشها ونقص عساكرها .

واستظهر « الأمير حسن » وقام بالأمر ، وانضمّ إليه أوباش الناس ففرّق فيهم الزرد ، وسمّاهم صبيان الزرد وجعلهم خاصته ، فاحتفوا به وصاروا لا يفارقونه ، فإن ركب أحاطوا به ، وإن نزل لازموا داره ، فقامت قيامة الناس منهم ، وشرع في تتبع الأكابر فقبض على « ابن العسّاف » وقتله ، وقصد أباه الحافظ وأخاه « حيدرة » بالضرر ، حتى خافا منه وتغيّبا ، فجدّ في طلب أخيه « حيدرة » وهتك بأوباشه الذين اختارهم حرمة القصر ، وخرق ناموسه ، وسلّطهم يفتشون القصر في طلب الحافظ وابنه حيدرة واشتدّ بأسهم ، وحسّنوا له كل رذيلة . وجرّأوه على الأذى ، فلم يجد الحافظ بداً من مداراته وتلافي أمره فكتب سجلاً بولايته للعهد وأرسله إليه فقرىء على الناس ولكن كل هذا لم يزده إلاّ جرأة على أبيه ، وهنا أرسل الحافظ « ابن اسعاف » إلى بلاد الصعيد ليجمع من يقدر عليه من فرقة « الريحانيّة » فمضى واستصرخ لنصرة الحافظ على ولده وجمع أمماً لا تحصى وسار بهم للقاء « الحسن » الذي زجّ بقواته في المعركة فكانت من أهم المعارك سوءاً على جيش « إسعاف » فانهزم وركب جيش حسن في أثره فلم

ينج منه إلاّ القليل وأخذ « اسعاف » أسيراً فحمل إلى القاهرة على جمل وفي رأسه طرطور لبد أحمر ، كلما وصل بين القصرين رشق بالنشّاب حتّى هلك ، ورميَ من القصر الغربي ، وقتل « الأمير شرف الدين » فاشتد ذلك على الحافظ وخاف على نفسه فكتب ورقة إلى الحسن وفيها :

« يا ولدي : أنت على كل حال ولدي ، ولو عمل كل منّا لصاحبه ما يكره الآخر ما أراد أن يعيبه مكروه ، ولا يحملني قلبي وقد انتهى الأمر إلى أمراء الدولة وهم فلان وفلان . . . وقد شردت وطأتك عليهم وخافوك ، وهم معولون على قتلك فخذ حذرك يا ولدي » .

فعندما وقف حسن على الورقة غضب ولم يتأنّ ، وبعث إلى أولئك ، فلمّا صاروا إليه أمر صبيان الزرد بقتلهم ، فقتلوا عن آخرهم وكانوا عدة من أعيان الأمراء وأحاط بدورهم وأخذ سائر ما فيها ، فاشتدت المصيبة وعظمت الرزيّة ، وتخوّف من بقي من الجند ونفروا منه ، فإنه كان جريئاً مفسداً شديد الفحص عن أموال الناس والاستقصاء لأخبارهم يريد قلب الدولة وتغييرها ليقدم أوباشه ، وأكثر من مصادرة الناس ، وقتل قاضي القضاة « أبا الثريا — نجم » لأنه كان من خواص أبيه ، وقتل جماعة من الأعيان ، وردّ القضاء

« لابن ميسر » وتفاقم أمره وعظم خطبه واشتدت الوحشة بينه وبين الأمراء والأجناد ، وهمّوا بخلع الحافظ ومحاربة ابنه « الحسن » وصاروا يداً واحدة ، واجتمعوا بين القصرين وهم عشرة آلاف ما بين فارس وراجل ، وسيّروا إلى الحافظ يشكون ما هم فيه من البلاء مع ابنه « الحسن » ويطلبون منه أن يعزله من ولاية العهد فعجز « الحسن » عن مقاومتهم عندما لم يبق معه إلاّ القليل من جيشه ، وهنا تحيّر وخاف على نفسه ، فالتجأ إلى القصر وصار إلى أبيه الحافظ ، فما هو إلاّ أن تمكن منه حتّى قبض عليه وقيّده ، وبعث إلى الأمراء يخبرهم بذلك ، فأجمعوا على قتله ، فردّ عليهم أنه قد صرفه عنهم ولا يمكنه أبداً من التصرف ، ووعدهم بالزيادة في الأرزاق والاقطاعات وأن يكفّوا عن طلب قتله ، فألحّوا في قتله وقالوا : « إما نحن وإمّا هو » ، واشتدّ طلبهم إياه حتّى احضروا الأحطاب والنيران ليحرقوا القصر ، وبالغوا في التحري على الخليفة ، فلم يجد بداً من إجابتهم إلى قتله، وسألهم أن يمهلوه ثلاثاً ، فأناخوا بين القصرين ، وأقاموا على حالهم حتّى تنقضي الثلاث ، فما وسع الحافظ إلاّ أن استدعى طبيبيه وهما : « أبو منصور اليهودي » و « ابن قرفة النصراني » وبدأ بأبي منصور وفاوضه في عمله سقية قاتلة .

فامتنع من ذلك ، وحلف بالتوراة أنه لا يعرف عمل شيء من ذلك فتركه ، وأحضر « ابن قرفة » وكلّمه في هذا فقال : « الساعة » ولا يتقطع منها جسده بل تفيض النفس لا غير ، فأحضر السقية من يومه ، وبعثها إلى الحسن مع عدة من الصقالبة وما زالوا يكرهونه على شربها حتى فعل وكان موته سنة ٥٢٩ هـ . وبعد ذلك بعث الحافظ إلى القوم سرّاً يقول : « قد كان ما أردتم فامضوا إلى دوركم » فقالوا : لا بد أن يشاهده منّا من نثق به . وندبوا منهم أميراً معروفاً بالجرأة والشر يقال له « المعظّم جلال الدين محمد » فدخل إلى القصر وصار إلى جنب الحسن فإذا به قد سجّي بثوب ، فكشف عن وجهه وأخرج من وسطه آلة من حديد وغرزه بها في عدة مواضع من بدنه إلى أن يتّقن أنه قد مات ، ثم عاد إلى القوم وأخبرهم فتفرقوا .

وزراء الحافظ

١ ـ هزار الملوك ـ جوامرد :

أقام لمدة نصف يوم في ١٤ من ذي القعدة سنة ٥٢٤ هـ .

يقول المقريزي :

إن الحافظ لدين الله جلس يوم قتل الآمر كفيلاً لطفل « منتظر » وتقرر أن يكون « هزار الملوك جوامرد » ، وزيراً وأن يكون الأمير « السعيد ياغي » متولي الباب » « اسفهسلارا » وقرىء سجل في الإيوان بهذا الخصوص . وكان الحافظ في الشباك جالساً ، وقد تولّى قراءته قاضي القضاة « ابن ميسر » على كرسي نُصب له أمام الحافظ وبحضور أرباب الدولة ، وخلع على هزار الملوك خلع الوزارة ، ولكن الجند المجتمعين بين القصرين أبوا ذلك وطالبوا بتولية « أحمد بن الأفضل » الملقب « بكتيفات » ولم تهدأ ثورتهم حتى اضطر الحافظ إلى قتل « هزار الملوك » وألقى برأسه إلى الجند ، واستدعى بالخلع لأحمد بن الأفضل ، فأفيضت عليه في يوم الأربعاء الخامس

عشر من ذي القعدة ، وركب إلى دار الوزارة والجماعة مشاة في ركابه ، فكانت وزارة « هزار الملوك » نصف يوم بغير تصرف ، ووقع النهب في القاهرة من باب « الفتوح » إلى باب « زويلة » ، ونهبت « القيسارية » وكان فيها أكثر ما يملكه أهل القاهرة لأنها كانت مخزنهم ، فكان هذا أول حادث حدث على القاهرة من النهب والطمع ، وطيف برأس « هزار الملوك » على رمح .

كان « هزار الملوك » من كبار غلمان الآمر وقد اصطفاه لنفسه وردّ له المظالم والنظر في أحوال الجند ، وهو نوع من الوزارة . ويزيد المقريزي :

بأن الآمر وهب مرة لغلامه « هزار الملوك جوامرد » ثمانين ألف دينار وكان قد أعطى غلامه الآخر المسمّى « برغش » مثل هذا المبلغ ، وكانا أخص غلمانه وأقربهم منه وأشرفهم عنده منزلة ، وكانا أسمح خلق الله ، وكان الناس في أيامهما لا يوجد فيهم من يشكو الفقر ، فإن « هزار الملوك » كانت صدقته في كل يوم راتباً قد قدّروه بالقرافة أربعة آلاف درهم في ألف كاغدة على يد الثقة « ابن الصعيدي » و « غزال الوكيل » وكانت عطاياه من يده لا تنقص عن عشرة دنانير أبداً وذلك عند ركوبه إلى القصر وعودته منه من أحد يقف له ويطلب منه .

٢ – «أحمد بن الأفضل بن بدر الجمالي» الملقب «بكتيفات» :

في ١٥ من ذي القعدة سنة ٥٢٤ هـ . حتّى ١٦ من المحرّم سنة ٥٢٦ هـ .

مرّ معنا أن «أحمد» هو الذي بقي حياً من أولاد الأفضل وأولاد أخويه ، وإن الجيش هو الذي أرغم الحافظ على أسناد الوزارة إليه . وما أن استقرّ «كتيفات» في الوزارة حتّى قبض على الحافظ وسجنه وأعلن الدعوة للإمام «المنتظر» كما أبطل الدعوة الإسماعيلية وكاد يقضي على الدولة نفسها لولا أنه قتل أخيراً وأخرج الحافظ من معتقله وأعيد للقصر .

٣ – يانس الأرمني

في ١٦ من المحرّم سنة ٥٢٦حتّى ٢٦ من ذي الحجة من السنة يقول المقريزي :

لمّا قتل «كتيفات» بادر صبيان الخاص الذين تولّوا قتله إلى القصر ودخلوا ومعهم الأمير «يانس» متولي الباب إلى الخزانة التي فيها الحافظ ، وأخرجوه إلى الشباك وأجلسوه في منصب الخلافة وقالوا : والله ما حركنا على هذا إلاّ الأمير

« يانس » فجازاه الحافظ بأن فوّض إليه الوزارة في الحـال وخلع عليه فباشرها مباشرة جيدة .

وكان « يانس » هـذا مولى أرمنياً لباديس جد عباس الوزير فأهداه إلى الأفضل بن بدر الجمالي وترقى في خدمته ، ثم وليَ الباب وهذه أعظم وظائف الأمراء وكني بأبي الفتح ولقب بالأمير السعيد ، وكان عظيم الهمة بعيد الغور شديد الهيبة ، فهدأت الدهماء وصلحت الأحوال واستقرّت الخلافة للحافظ إلاّ أن علاقته أخيراً ساءت بالحافظ فدبّر عليه حتى قتله بالسم .

ولمّا مات « يانس » تولّى الحافظ الأمر بنفسه ولم يستوزر أحداً ، وفي سنة ٥٣٨ هـ . أقام الحافظ أكبر أولاده سليمان ولياً للعهد وأقامه ليسد مكان الوزير ويستريح من مقاساة الوزراء ومضايقتهم أيّاه في أوامره ونواهيه . وهكذا ظلّ الحافظ دون وزراء حتى جمادى الآخرة سنة ٥٢٩ هـ .

٣ – بهرام الأرمني :

١١ من جمادى الآخرة سنة ٥٢٩هـ. حتى ١١ من جمادى الأولى سنة ٥٣١ هـ . أرمني الجنسية ، نصراني الدين من

« تل باشر » ويذكر « ابن ميسر » أن سبب حضوره إلى مصر . . . أن القائم بأمر الأرمن مات ، وكان بهرام أحق بمكانه ممن ولي بعده ، فتعصبت عليه جماعة من الأرمن ورفضوه وولّوا عليهم غيره ، فخرج من « تل باشر » مغاضباً وقدم إلى القاهرة والتحق بخدمة الدولة ، وكان « بهرام » عاقلاً مقداماً في الحرب حسن السياسة ، جيد التدبير فترقّى في الخدمة حتى ولي المحلة فقام بولايتها حتى خرج إلى القاهرة بعد قتل حسن وتولّى الوزارة .

يقول التاريخ :

وقدم « بهرام » بالحشد كما تقدّم فوجد حسن قد مات ، فمسكه الأجناد بظاهر القاهرة وأدخلوه على الحافظ يوم الخميس بعد العصر الحادي عشر من جمادى الآخرة لتولية الوزارة ، فخلع عليه يوم الأحد رابع عشر ، ثم خلع عليه ثانياً يوم الخميس ثامن عشر خلع الوزارة ونُعت « بسيف الإسلام ، تاج الخلافة » . فشق ذلك على الناس وتطاول النصارى في أيامه على المسلمين ، وكان هو قد أحسن السيرة وساس الرعية وأدّى الطاعة للحافظ ، وأنفق على الجند الأموال الطائلة ، فاستقامت له الأحوال وراسله الملوك ، وزال كل ما كان في البلاد من الفتن ولم ينكر عليه سوى أنه نصراني .

وظلّ « بهرام » في الوزارة حتى طرده منها « رضوان بن الولخشي » وحلّ مكانه وأخيراً :

مات بهرام في ٢٠ ربيع الآخر سنة ٥٣٥ هـ . فحزن عليه الحافظ وأمر بإغلاق دوائر الدولة ثلاثة أيام .

٥ – « رضوان بن الولخشي » :

١١ من جمادى الأولى سنة ٥١٣ هـ . حتى ١٤ من شوال سنة ٥٣٣ هـ .

يذكر التاريخ :

إنه لمّا خرج « بهرام » من القاهرة دخل « رضوان » إليها فوقف بين القصرين واستأذن الحافظ فيما يفعله ، فأشار بنزوله إلى دار الوزارة فنزلها وخلع عليه خلع الوزارة . وذكر بعض المؤرخين :

إن « بهرام » خرج من القاهرة يوم الأربعاء وقت العصر في الحادي عشر من جمادى الأولى ، وإن « رضوان » نزل دار الوزارة بعد خروج بهرام وخلع عليه خلع الوزارة يوم الجمعة ثالث عشر من جمادى الأولى ونعت بالسيد الأجل ، فاستدعى بالأموال من الخليفة وأنفق في الجند ومهّد الأمر ، وأن رضوان أول وزير لُقّب بالملك .

ولد ليلة عيد الغدير ١٨ من ذي الحجة سنة ٤٨٧ هـ . والتحق بخدمة الدولة ، وترقّى في الخدم حتى أصبح أحد الأمراء المميزين في خلافة الآمر بأحكام الله .

امتاز بالشجاعة والإقدام وهو الذي قاد ثورة الجند ضد تولية « هزار الملوك » الوزارة وطالب بتوزير « أحمد بن الأفضل » ثم ولي « قوص » و « إخميم » سنة ٥٢٨ هـ . وأصبح صاحب الباب سنة ٥٢٩ هـ . وهي رتبة تلي رتبة الوزارة ولكن بهرام خشي وجوده بالقاهرة ، فولاّه « عسقلان » في رجب سنة ٥٢٩هـ. ثم اضطر لاستدعائه مرة أخرى للقاهرة لوقوفه في وجه الأرمن الذين يقطنون مصر ، ثم ولاّه « الغربية » في صفر سنة ٥٣٠ هـ . وظلّ بها حتى خرج على رأس قواته طرد « بهرام » وتولّى الوزارة .

واستطاع الحافظ أن يثير ضد رضوان أحد كبار الأمراء هو : « علي بن السلاّر » وتمكن هذا من إثارة الجند ضده وقامت الفتنة في يوم الاثنين الثالث عشر من شوال سنة ٥٣٤ هـ. واضطرّ رضوان للهرب إلى عسقلان فدخلها وجعلها معقله ، وتوجه أخوه الأوحد إبراهيم إلى الحجاز وأقام به حتى مات . وسار ابن أخيه الذي كان والياً على مصر إلى بغداد فأكرمه أصحاب الحافظ هناك ولم يزل عندهم إلى أن مات ، ثم خرج

رضوان من عسقلان إلى « صلخد » حيث نزل على أمين الدولة « كمشتكين » الذي أبرّه وأكرمه .

وعاد « رضوان » في صفر سنة ٥٣٤ هـ . في قوة من ألف فارس ، ولكن الحافظ تمكن من القبض عليه يوم الاثنين ٤ من ربيع الآخر من السنة واعتقله بالقصر قريباً من الدار التي فيها بهرام وظلّ معتقلاً حتى استطاع الهرب من نقب نقبه وذلك في ٢٣ من ذي القعدة سنة ٥٤٢ هـ . وتجمّع حوله عدد من الأجناد وعرب « لواته » وتمكن من دخول القاهرة ونزل بالجامع الأقمر يوم الجمعة ٢٦ من ذي القعدة ولكن بعض السودان استطاعوا — بعد أن أجزل لهم الحافظ العطاء — قتله في ذلك اليوم .

٦ — « نجم الدين سليم بن مصال اللكّي » :

٥٣٤ — حتى ٥٤٢ هـ .

تولّى الوزارة مرتين : المرة الأولى في خلافة الحافظ سنة ٥٣٤ هـ . إذ يذكر التاريخ في حوادث تلك السنة :

وفيها ولّى الحافظ « الأمير نجم الدين سليم بن مصال اللكّي تدبير الأمور ، ويبدو أن ذلك بعد أن قبض على

« رضوان بن الولخشي » في ربيع الآخر ، وقد ظل ابن مصال يدبر الأمور حتى سنة ٥٣٢هـ. على الأقل. ويذكر المقريزي في حوادث تلك السنة :

وفيها خرج رضوان من نقب نقبه بالقصر ، وذلك أن الحافظ اعتقله بالقصر وأرسل يسأله في أشياء من جملتها زيارة «نجم الدين بن مصال» له في الوقت بعد الوقت ، فأجابه إلى ذلك لثقته بابن مصال ، فحضر ابن مصال في يوم من الأيام لخدمة الخليفة وبدأ بزيارة رضوان فدخل إليه ومعه مشدة فيها رقاع بحوائج الناس ليعرضها على الحافظ وكانت عادته ذلك فاحتاج إلى الخلاء ، فترك مشدته عند رضوان ودخل الخلاء فأخذ رضوان الرقاع ووقّع بخطه عليها كل بما يسوغ التوقيع به وأتربها وطواها في المشدة ، وخرج ابن مصال فأخذها ودخل على الحافظ . وقد علم أنه كان عند رضوان . فقال له كيف ضيفنا ؟ فقال على غاية التذكر لنعمة مولانا وجواره ، وأخرج رقعة من تلك الرقاع ليعرضها على الخليفة فوجد عليها التوقيع بخط رضوان فأمسكها وأخرج غيرها ، فإذا هي موقع عليها أيضاً ، وكان الحافظ يراه فقال : ما هذا ؟ فاستحيا ابن مصال عندما تناول الخليفة الرقاع وعليها توقيع رضوان ، فقال له الحافظ :

يا نجم الدين ما زلت مباركاً علينا ، والله يشكر لك ذلك ... لقد فرّجت عنّا غمته ، فقال : كيف يا مولانا ؟ قال : رأيت البارحة رؤيا مقتضاها أنه ربما يشركنا في كثير من أمرنا . . . فالحمد لله إذ كان هذا . . . وكتب على الرقاع وأمضاها بخطه وخلع على ابن مصال .

يتضح من كل هذا أن ابن مصال كان يدبر الأمور ويقوم بعمل الوزراء ، ولكن المقريزي وابن ميسر يعودان فيذكران أن الحافظ لم يستوزر أحداً بعد أن قبض على رضوان وإنما أقام كتاباً على سنة الوزراء أرباب العمايم ، ولم يسمّ أحداً منهم وزيراً وهم : محمد بن الأنصاري ، وهذا تصرّف تصرُّف الوزراء وصعد المنبر مع الحافظ في الجمع والأعياد ، والقاضي « الموقف محمد بن معصوم التنيسي » و « أبو الكرم الأخرم النصراني » .

ويرجّح أن الحافظ صرف ابن مصال بعد القضاء على رضوان وقتله واستعان بالكتّاب السابق ذكرهم . وعلى ذلك يمكن أن نحدّد وزارة ابن مصال الأولى من سنة ٥٣٤ هـ . حتى سنة ٥٢٢ هـ. ولم يكن فيها وزير سيف .

ومن سنة ٥٤٢هـ. حتى مات الحافظ في ٥ جمادى الآخرة سنة ٥٤٤ هـ. بدون وزراء .

الوصي الثاني
الظافر

اسمه : الظافر بأمر الله . . . لقبه : إسماعيل . . . كنيته : أبو المنصور ، ولد في النصف من ربيع الآخر سنة خمسمائة وسبع وعشرين سنة ٥٢٧ هـ . ظلّ في الحكم أربع سنين وثمانية أشهر إلاّ خمسة أيام،قتل ليلة الخميس آخر المحرم سنة ٥٤٩ هـ. وكان عمره إحدى وعشرين سنة وتسعة أشهر ونصف .

اخباره

لمّا مات الحافظ لدين الله ، بويع ولده : الظافر بأمر الله بموجب وصية أبيه وقام بتدبير الوزارة « نجم الدين بن محمد ابن مصال » فلم يرضَ « الأمير المظفر علي بن السلاّر » والي الاسكندرية يومئذٍ ، فحشد وسار إلى القاهرة ففرّ ابن مصال واستقر « ابن السلاّر » في الوزارة وتلقّب بـ « العادل » ولكن لم يمض عليه سوى فترة قصيرة حتّى عاد ابن مصال إلى ممارسته ثم قتله ، فقوي « ابن السلاّر » واستوحش منه الظافر كما خاف ابن السلاّر واحترز منه على نفسه . وجعل له رجالاً يمشون في ركابه بالزرد والخوذ وعددهم ستمائة رجل بالنوبة ، ونقل جلوس الظافر من القاعة إلى الإيوان في البراح والسعة ، حتّى إذا دخل للخدمة يكون أصحاب الزرد معه ، ثم تأكدت النفرة بينهما فقبض على صبيان الخاص وقتل أكثرهم وفرّق باقيهم وكانوا خمسمائة رجل ، وما زال الأمر على ذلك إلى

أن قتله ربيبه « عبّاس بن تميم » بيد ولده « نصر » واستقر بعده في وزارة الظافر .

وكان بين ناصر الدين نصر بن عباس الوزير وبين الظافر مودة أكيدة ومخالطة بحيث كان الظافر يشتغل به عن كل أحد ، ويخرج من قصره إلى دار نصر بن عباس . فخاف عباس من جرأة ابنه وخشي أن يحمله الظافر على قتله فيقتله كما قتل الوزير علي بن السلاّر » زوج جدته أم عباس ، فنهاه عن ذلك وألحف في تأنيبه وأفرط في لومه لأن الأمراء كانوا مستوحشين من عباس وكارهين منه تقريبه « أسامة بن منقذ » لما علموه من أنه هو الذي حسّن لعباس قتل ابن السلاّر ، — كما هو مذكور في خبره — وهموا بقتله وتحدثوا مع الخليفة الظافر في ذلك ، فبلغ « أسامة » ما هم عليه وكان غريباً في الدولة ، فأخذ يغري الوزير عباس بن تميم بابنه نصر ويبالغ في تقبيح مخالطته للظافر إلى أن قال له مرة : كيف تصبر على ما يقول الناس في حق ولدك من أن الظافر يحبه ويؤثره ويفضله ؟ فأثر ذلك في قلب ابن عباس ، واتفق أن الظافر أنعم بمدينة « قليوب » على نصر بن عباس ، فلمّا حضر إلى أبيه وأعلمه و « أسامة » حاضر قال له : يا ناصر الدين : ما هي بمهرك غالية ، يعرض له بالفحش ، فأخذ عباس من

ذلك ما أخذه وتحدث مع « أسامة » لثقته به في كيفية الخلاص من هذا ، فأشار عليه بقتل الظافر إذا جاء إلى دار نصر على عادته في الليل ، وأمره بمفاوضة ابنه نصر في ذلك ، فاغتنمها وما زال بنصر يشنع عليه ويحرّضه على قتل الظافر حتّى وعده بذلك ،

فلما كان ليلة الخميس آخر المحرّم من سنة ٥٤٩ هـ . خرج الظافر من قصره متنكراً ومعه خادمان كما هي عادته ، ومشى إلى دار « نصر بن عباس » فإذا به قد أعدّ له قوماً ، فعندما صار في داخل داره وثبوا عليه وقتلوه هو وأحد الخادمين ، وتوارى عنهم الخادم الآخر ، ولحق بعد ذلك بالقصر ، ثم أنهم دفنوا الظافر والخادم تحت الأرض .

كان محكوماً عليه في خلافته ، وكان كثير اللهو واللعب . وفي عهده ظهر الوهن في الدولة ، وملك الصليبيون مدينة « عسقلان » .

ونعود إلى الموضوع الأساسي ، فعندما بلغ أهل القصر ما عمله نصر بن عباس من قتل الظافر كاتبوا « طلائع بن رزيك » وكان على « الأشمونيين » وبعثوا إليه بشعور النساء يستصرخون به على عباس وابنه ، فقدم بالجموع ، وفرّ عباس

وأسامة بن منقذ ونصر ، ودخل طلائع وعليه ثياب سود وأعلامه وبنوده كلها سود ، وشعور النساء التي أرسلت إليه من القصر على الرماح ، فمضى ماشياً إلى دار نصر ، وأخرج الظافر والخادم وغسلهما وكفنهما ، وحمل الظافر في تابوت مغشى ومشى وراءه حافياً والناس كلهم حتى وصلوا إلى القصر ، وهناك صلّى عليه ابنه « الفائز » ودفن في تربة القصر .

وزراء الظافر

١ – « سليم بن محمد بن مصال اللّكي » :

جمادى الآخرة سنة ٥٤٤ هـ . حتّى ١٤ شعبان من السنة .

يذكر التاريخ :

كان وزيراً بعهد الحافظ . وفي عهد الظافر تسلّم الوزارة كوزير سيف، وأصله من قرية « للك » من أعمال برقة ، خدم أولاً في « البيرزه والصيد » هو وأبوه فتقدم في الخدم حتى أصبح من كبار الأمراء ونال الوزارة ، واتفق أنه مرّ في وزارته مرة ، فقالت له امرأة كانت تعرفه في حال فقره ، سليم وزرت ، فقال لها نعم ، قالت : والله ما وزرت وبقي أحد . . . فضحك وأمر لها بصلة :

ولم تطل وزارة ابن مصال الثانية إذ ثار عليه ابن السلاّر والي الاسكندرية والبحيرة ، واجتمع معه ابن زوجته « عباس

ابن باديس » واتفقا على إزالة ابن مصال من الوزارة فبلغه ذلك فأعلم به الظافر الذي جمع الأمراء في مجلس الوزارة ، وبعث إليهم زمام القصور يقول :

هذا نجم الدين وزيري ونائبي ، فمن كان يطيعني فليطعه ويمتثل أمره . . . فقال الأمراء نحن مماليك مولانا سامعون مطيعون . فقال أمير من الأمراء : ان سمع مني ما أقول قلت ، فقال له الوزير قلْ . . . قال مولانا يعلم وأنت تعلم أنّ ما في الجماعة من يضرب ابن السلاّر بسيف أولهم أنا فإن كان مولانا يقتل جميع أمرائه وأجناده فالأمر لله وله . فلما سمع الجماعة قاموا وخرجوا من القصر يريدون ابن السلاّر ، فلما غلب الظافر عن دفعه ، أعطى ابن مصال مالاً كثيراً وأمره أن يعمل لنفسه ما يرى فيه الخيرة وهو يساعده . ولما رأى ابن مصال أن لا طاقة له بملاقاة ابن السلاّر عدا إلى الجيزة ، ودخل ابن السلاّر إلى القاهرة ، فوقف على القصر وسار إلى الظافر وإلى من يدبره من النساء ويعلم مجاله ، فجرت بينه وبين أهل القصر مراجعات كثيرة حتّى فتح له أبواب القصر وخلع عليه خلع الوزارة .

٢ – علي بن إسحاق بن السلاّر :

١٥ من شعبان سنة ٥٤٤هـ. حتّى ٦ من المحرّم سنة ٥٤٨هـ.
يذكر التاريخ :

إن الظافر خلع عليه خلع الوزارة، وأعطاه لقب «السيد الأجل أمير الجيوش شرف الإسلام كافل قضاة المسلمين». . . وكان يحقد على الظافر لميله إلى ابن مصال ، كما أن الظافر لم يكن يرتاح ضمناً إليه .

وقد جمع ابن مصال العديد من أهالي السودان ، ومن العربان و «لواتة» وغيرهم ، وانضمّ إليه «بدر بن رافع» مقدم العربان ، فندب ابن السلاّر ربيبه عباس لقتاله ويقول «أسامة بن منقذ» وهو ممن عاصر تلك الأحداث :

خرج «عباس ركن الدين» وهو ابن امرأة «علي بن السلاّر» فضرب خيمة في ظاهر البلدة، فغدت سرية من «لواتة» ومعهم نسيب لابن مصال وقصدوا مخيّم عباس فانهزم عنه جماعة من المصريين ، ووقف هو وغلمانه ومن صبر معه في الجند وبلغ الخبر إلى ابن السلاّر ، فاستدعاني في الليل وأنا معه في الدار ، وقال هؤلاء الكلاب يعني جند مصر ، قد شغلوا الأمير يعني عبّاساً بالقوارع حتّى عدا إليه قوم من «لواته»

سباحة ، فانهزموا عنه ودخل بعضهم إلى بيوتهم في القاهرة ، والأمير مواقفهم . . . قلت : يا مولاي . . . نركب إليهم في سحر وما يضحى النهار إلاّ وقد فرغنا منهم إن شاء الله قال : صواب . . . أبكر في ركوبك ، فخرجنا إليهم من بكرة فلم يسلم منهم إلاّ من سبحت به فرسه في النيل ، وأخذ نسيب ابن مصال فضرب رقبته وجميع العسكر مع العباس ، وسيّره إلى ابن مصال فلقيه على دلاص فكسرهم وقتل ابن مصال ، وقتل من السودان وغيرهم سبعة عشر ألف رجل وحملوا رأس ابن مصال إلى القاهرة ، ولم يبقَ لسيف الدين من يعانده .

ولم يصف الجو بين ابن السلاّر والظافر حتى انتهى الأمر بأن قتل ابن السلاّر يوم الخميس السادس من المحرّم سنة ٥٤٨هـ.

وعن ترجمة ابن السلاّر يذكر ابن خلكان :

إنه كان كرديّاً زرزارياً وكان والده في صحبة « سقمان ابن أرتق » صاحب القدس ، فلما استولى « الأفضل » على القدس وجد فيها طائفة من عسكر سقمان فضمهم إليه ، ومن جملتهم ابن السلاّر والد الوزير فأخذه الأفضل إليه ، وتقدّم عنده وسمّاه سيف الدولة وأكرم ولده هذا وجعله في عداد صبيان الحجر ، وكان العادل ممن امتازوا بالشجاعة والإقدام والعقل فأمّره الحافظ وتقلّبت به الأحوال في

الولايات بالصيد والريف حتى أصبح والياً على البحيرة والاسكندرية قبل توليه الوزارة . وكان ابن السلاّر شهماً مقداماً مائلاً إلى أرباب العقل والصلاح . وكان ظاهر التسنن شافعي المذهب ، ويستطرد ابن خلكان :

إنه كان مع هذه الأوصاف ذا سيرة جائرة وسطوة قاطعة يؤخذ الناس بالصغائر والمحقرات ، ومما يروى عنه أنه قبل وزارته بزمان دخل يوماً على الموفق أبي الكرم بن معصوم التنيسي ، وكان مستوفي الديوان — فشكا إليه حاله من غرامة لزمته بسبب تفريطه في شيء من لوازم الولاية بالغربية ، فلما أطال عليه الكلام قال له أبو الكرم :

والله ان كلامك لا يدخل في أذني . . . فحقد عليه ، ولما تولّى الوزارة طلبه ، فخاف منه واستتر مدة ، فنادى عليه في البلد ، وهدر دم من يخفيه ، فأخرجه الذي خبأه عنده ، فخرج في زي امرأة بازار وخف ، ولكنه عُرف فحمل إلى العادل فأمر بإحضار لوح من الخشب ومسمار طويل فألقي على جنبه وطرح اللوح تحت أذنه ، ثم ضرب المسمار في الأذن الأخرى فصار كلما صرخ يقول له :

دخل كلامي في أذنك بعد أم لا ؟ ولم يزل كذلك حتى نفذ المسمار من الأذن الأخرى ، ويقال انه شنقه بعد ذلك .

٣ – «عباس بن باديس الصنهاجي» :

١٢ من المحرّم سنة ٥٤٧ هـ . حتى ١٩ من ربيع الأول سنة ٥٤٩ هـ .

أصله من المغرب ومن بيت الملك فيها . . . وصل مع أمه إلى مصر وهو صبي فتزوجها ابن السلاّر وتبنّى عباساً الذي ترقّى في الخدمة حتى ولي الغربيّة ، ولقّب بالأمير ركن الإسلام ، ثم تولّى الوزارة بعد قتله ابن السلاّر ، وقد جرت في عهد عباس أحداث ساعدت في سرعة القضاء على الدولة الفاطمية . . . ذكرناها في الصفحات السابقة . وذكر : أنه كان لعبّاس مائتا حصان ومائتا بغل وأربعمائة جمل تحمل أثقاله كما كان له خمسة آلاف مملوك ، وقد نهبت ثروته وخزائنه أثناء الفتنة التي أعقبت قتل الظافر .

احداث وفتن

يرى بعض المؤرخين أن النزاع الذي استمرّ طويلاً في عهد « الظافر » بين ابن السلاّر وابن مصال هو في الحقيقة نزاع بين السنّة والشيعة .

ولكن الظافر بالرغم من كل ما كان يراه فإنه دبّر قتل وزيره ابن السلاّر بيد نصر بن ربيبه عباس وذلك سنة ٥٤٨هـ. وقد كوفيء الأخير على جريمة ابنه بتولي الوزارة حيث قرّب الأمراء وأحسن إلى الأجناد حتى ينسوا ابن السلاّر ، وأخذ الظافر يغدق بدوره على نصر بن عباس المنح والاقطاعات مما جعل الناس يتحدثون عنهما أحاديث مريبة كما ذكرنا فأمضّ ذلك والده عباس الذي أغراه فيما بعد بقتل الظافر ، ولم تنته الجرائم بكل ذلك بل تلاها مسرحية مؤلمة قصد بها التضليل وإبعاد الشبهات ، فيكر إلى القصر ويتهم أخو الظافر بقتله ثم أحضر ابن الظافر وهو طفل في الخامسة وبايعه بالخلافة وسط مظاهر الرعب والدماء ومنذ ذلك الوقت أصيب الطفل بالصرع .

وظنّ عباس أن الأمر قد استقام له ولم يحسب حساباً «لطلائع بن زريك» الذي هاجم القاهرة. ففرّ عباس وابنه. واستطاع ابن زريك أن يعيد النظام والأمن إلى البلاد. وهذا الوزير لعب دوراً بارزاً على المسرح السياسي في الديار المصرية وكل هذا سنذكره في الصفحات التالية.



الوصي الثالث : الفائز

اسمه : الفائز بنصر الله . . . لقبه : عيسى : كنيته : أبو القاسم . ولد سنة ٥٤٤ هـ . حينما سمّوه لولاية العهد بعد مقتل والده الظافر كان له من العمر خمس سنين . بقي في الخلافة ست سنين وخمسة أشهر وعدة أيام ، عاش إحدى عشر سنة وستة أشهر ويومين . توفي في الثالث عشر من رجب سنة ٥٥٥ هـ .

ذكر التاريخ :

إن طلائع بن زريك – والي الأشمونين ، عندما زحف إلى القاهرة واستولى عليها فرّ عباس . وعندئذ استحضر الفائز ابن الظافر وكان له من العمر خمسة أعوام كما ذكرنا للخلافة مكان أبيه ، ولكن الفائز رأى عندئذٍ أعمامه قتلى وسمع الصراخ فاختل عقله وأصيب بما يشبه الجنون أو الصرعة ، وظلّت النوبات تصيبه حتى مات . . .

١ – الوزير الأول

١٩ من ربيع الأول سنة ٥٤٩ هـ . حتّى ١٩ رمضان سنة ٥٥٦ هـ .

أرمني الجنسية . ولد بأرمينية سنة ٩٤٥ هـ . وأكبّ منذ صغره على العلم والأدب وكان من الشيعة الإمامية . فقدم مع جماعة من الفقراء لزيارة مشهد الإمام علي بن أبي طالب في النجف بالعراق . فرأى السيد بن معصوم إمام المشهد في منامه الإمام علي رضي الله عنه يقول له :

قد ورد عليك الليلة أربعون فقيراً من جملتهم رجل يقال له « طلائع بن رزّيك » من أكبر محبينا . . . قل له اذهب فقد وليناك مصر . فلمّا أصبح أمر ان ينادي من فيكم « طلائع ابن رزّيك » ؟ فليقم إلى السيد ابن معصوم . فجاء طلائع وسلّم عليه فقصّ عليه ما رأى . فسار حينئذٍ إلى مصر والتحق بخدمة الدولة وترقّى في المناصب حتّى ولي الصعيد فلما قتل عباس الظافر . بعث إليه نساء القصر يستغثن به فجاء إلى القاهرة ووضع السيف فيمن بقي من أصحاب عباس . وخلع عليه الوصي خلع الوزارة .

وذكر التاريخ :

إنه باشر البلاد أحسن مباشرة واستبد بالأمور لصغر سن الوصي الفائز إلى أن مات . فأقام من بعده الوصي الرابع « العاضد » وبايعه الناس وكان صغيراً لم يبلغ الحلم فقويت حرمة طلائع وازداد تمكنه من الدولة فثقل على أهل القصر لكثرة تضييقه عليهم واستبداده بالأمر دونهم . فوقف له رجال بدهاليز القصر وضربوه حتى سقط على الأرض وحمل جريحاً إلى داره فمات يوم الاثنين في التاسع عشر من رمضان سنة ٥٥٦ هـ .

كان شجاعاً كريماً جواداً فاضلاً محباً لاهل الأدب . جيد الشعر . وكان مهاباً في شكله عظيماً في سطوته . وجمع أموالاً طائلة . وكان محافظاً على الصلوات فرائضها ونوافلها شديد المغالاة في التشيع . ولما ولي الوزارة مال على المستخدمين بالدولة وعلى الأمراء وأظهر مذهب الإمامية وهو مخالف لمذهب القوم . وباع ولايات الأعمال للأمراء بأسعار مقررة . وجعل مدة كل متول ستة أشهر . فتضرر الناس من كثرة تردد الولاة على البلاد وتعبوا من ذلك . ولم يترك مدة أيامه غزو الصليبيين وتسيير الجيوش لقتالهم في البر والبحر . وكان يخرج البعوث في كل سنة مراراً . وكان يحمل في كل عام إلى أهل الحرمين مكة والمدينة من الأشراف سائر ما يحتاجون

إليه من الكسوة وغيرها حتى يحمل إليهم ألواح الصبيان التي يكتب فيها والأقلام والمداد .

ولما كان في الليلة التي قتل في صبيحتها قال :

في هذه الليلة ضرب في مثلها أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، وأمر بقربة ممتلئة فاغتسل وصلّى على رأي الإمامية مائة وعشرين ركعة أحيا بها ليلة ، وخرج ليركب فعثر وسقطت عمامته عن رأسه وتشوشت ، فقعد في دهليز دار الوزارة . وأمر بإحضار ابن الضيف وكان يعمّم للخلفاء والوزراء ، فلما أخذ في إصلاح العمامة قال رجل لطلائع :

نعيذ بالله مولانا ويكفيه هذا الذي جرى أمراً يتطيّر منه . فإن رأى مولانا أن يؤخر الركوب فعل . فقـــال : الطيرة من الشيطان . . . ليس إلى تأخير الركوب سبيل . وركب فكان من ضربه ما كان . وعاد محمولاً فمات .

ذكر التاريخ :

إن طلائع استطاع أن يعيد النظام والأمن إلى البلاد ، فعاقب الجناة الذين اشتركوا مع « نصر بن عباس » في جريمة قتل الظافر . كما قضى على ثورات المناوئين له . كثورة « طرخان » والي الاسكندرية الذي قام يطالب بالوزارة ،

فأرسل إليه طلائع جيشاً بقيادة ابن أخته « الأمير عز الدين » فهاجمه عند دمنهور واضطره إلى الفرار تحت جنح الليل ، وثورة « الأمير الأوحد بن تميم » والي إخميم وأسيوط وكان قد جمّع جموعاً كثيرة فأرسل إليه طلائع جيشاً تمكن من قتله في رجب سنة ٥٥٠ هـ . كما قبض على « الأمير ناصر الدولة ياقوت » والي قوص وأولاده بتهمة مكاتبة أخت الخليفة للقيام ضد طلائع وسجنهم .

وأخذ يتتبع كل من يخشى منافسته من أمراء الدولة ويتخلص منهم الواحد بعد الآخر حتى خلا له الجو ، وإن كان ذلك على حساب المصلحة العامة إذ أضعف الدولة بقتل أمرائهـــا وذوي الرأي والحزم فيهـــا ، وسيطر على القصر سيطرة تامة حتى أنه عندما بايع « العاضد » الوصي الأخير الرابع وذلك بعد موت الفائز أرغمه على الزواج من ابنته طمعاً في أن تؤول الوصاية لسبطه .

وتتهم المراجع التاريخية طلائع بن رزيك بحب المال وجمعه من أي سبيل ، وإنه أخذ يبيع الولايات للأمراء وجعل مدة الولاية سنة أو ستة أشهر فقط فتضرّر الناس من كثرة تردد الولاة عليهم ، كما كان هؤلاء الولاة يتبعون نفس السياسة مع مرؤوسيهم ، وكانت النتيجة انتشار الرشوة والفساد

والاختلاس وإرهاق الشعب بجمع الضرائب مما أضرّ بالفلاحين واحتكر طلائع الغلاّت فارتفع سعرها وتطلّع إلى ما في أيدي الناس من الأموال فشرع في الميل على المستخدمين وأخذ أموالهم وتتبّع أرباب البيوتات والنعم والأعيان فسلبهم نعمهم .

ويؤخذ على طلائع الميل على جانب الجند وإضعافهم والقص من أطرافهم ، وأن ما فعله شيء طبيعي بالنسبة لتلك الفترة العجيبة من عصر الفاطميين ، فإن الوزراء الذين جاءوا بقوة السلاح كانوا يبادرون بالتخلص من الأمراء المنافسين أو الذين يخشون منافستهم ، ومن الجند الذين يتوقعون منهم الثورة عليهم ، ثم يكوّنون فرقاً يطمئنون إلى ولاء جندها . وقد أنشأ طلائع فرقة يقال لها البرقية وكان عدتها أكثر من السبعين أميراً . وجعل على رأسهم «ضرغاماً» الذي صار وزيراً فيما بعد بمساعدة هؤلاء البرقيين . وبالرغم من محاولة طلائع إضعاف غيره من الأمراء ، فإنه اهتم هو وابنه العادل من بعده بالجيش والأسطول ضد الصليبيين . وقد ذكر التاريخ :

إن عدّة الجيوش بمصر أيام طلائع وابنه أربعين ألف فارس وستة وثلاثين ألف رجل من السودان ، وعشر قطع بحرية فيها عشرة آلاف مقاتل . . . وهناك من يقول : إن

الأسطول وصل عدد قطعاته إلى الثمانين بالإضافة إلى عشرة مسطّحات وعشر حمّالات .

ومن مآثر « طلائع بن رزّيك » إنه بالرغم من تعصبه للمذهب الشيعي ، يجتمع بفقهاء السنّة ويستمع إليهم ، وكان يعقد مجالس العلم والأدب ، ولم يكن يخيّب أمل قصّاده من أهل العلم الذين يفدون إليه من سائر البلاد ، فكان ممن قصده الشاعر الأديب : الحسن بن علي بن عبد الله بن أبي جرّارة ، ولقد عرف طلائع ما للشعر من أهمية فاستخدمه في تمكين دولته وتمجيد حروبه مع الصليبيين ، كما كان شيعيّاً مغالياً اتخذ من الشعر وسيلة لمحاولة نشر المذهب الشيعي والحط من شأن المذاهب الأخرى ، كما حاول جاهداً أن يغري شعراء عظام « كعُمارة اليمني » باعتناق هذا المذهب . واتخذ ابن رزّيك من الشعراء أصدقاء وجلساء . . . وذكر عمارة اليمني أسماء بعض الشعراء والأدباء الذين قابلهم في حضرة الوزير طلائع . . . فيقول :

منهم : ابن الحباب ، والموفق بن الخلال ، صاحب ديوان الإنشاء ، ومحمد بن قادوس ، والحسن بن الزبير وما من هذه الحلبة أحد إلاّ ويضرب في الفضائل النفسانية والرئاسة الإنسانية بأوفر نصيب ويرى شاكلة الأشكال فيصيب .

يقول عن طلائع :

«ولم تكن مجالس أنسه تنقطع إلاّ بالمذاكرة في أنواع العلوم الشرعية والأدبية . وكان شاعراً يحب الأدب وأهله ويكرم جليسه ويبسط أنيسه . وكان كرمه أقرب إلى الجزيل من الهزيل» لذلك قصده الشعراء من كل مكان فوجدوا في رحابه ما أمّلوه كما كان يراسله على البعد غيرهم فأفاض على الداني والقاصي بالعطاء . أو كما يقول القاضي الجليسي :

«نشرت أيامه مطوى الهمم ، وأنشرت رفات الجود والكرم ، ونفقت بدولته سوق الآداب بعدما كسرت . وهبّت ريح الفضل بعدما ركدت . إذ لها الملوك بالقيان والمعازف . . . كان لهوه بالعلوم والمعارف» .

ولا أدلّ على حب طلائع للشعر . ما ذكره عُمارة من أنه عند وصوله إلى مصر أول مرة رسولاً من أمير الحرمين «هاشم بن فليته» لجأ إلى الحسين بن أبي الهيجاء صهر طلائع ليقدمه له . يقول عُمارة :

فلمّا استدعى أبو الهيجاء للغداء عند طلائع قال عندي رسول صاحب مكة وكنت أظنه عاقلاً فإذا هو ناقص . . . قال له طلائع : وبأي شيء عرفت نقصه ، قال لكونه يحسن

شيئاً من هذا « السحت » الذي تعمله أنت والجليس وابن الزبير قال طلائع : لعله شاعر . . . قال نعم . قال طلائع هاته . . . هات الرجل . . . ثم أنشد :

أنَّ الذي تكرهون منـــه
ذاك الذي يشتهيهِ قلبي

ويكفي أن نذكر بعض فحول الشعراء الذين حفل بهم بلاط الوزراء وخاصة ابن رزّيك لنعرف مدى ما وصل إليه الأدب من ازدهار وما بلغه الشعراء والأدباء من مراكز الصدارة في دواوين الدولة، ومن هؤلاء الإخوان أحمد والحسن ابنا علي بن الزبير وقد وصف عماد الدين الأخير بقوله : « محكم الشعر كالبناء المشيّد ولم يكن في زمانه أشعر منه » والقاضي الجليس بن الحباب ، والشريف القاضي سناء الملك أسعد بن علي الحسيني الذي جاء من الموصل واستقرّ بمصر ، والأمير أبو المهنّد حسام بن مبارك العقيلي ابن أخت طلائع ، وكان مقدم عسكره كما كان شاعراً مثل خاله ؛ والفقيه الشاعر نصر بن عبد الرحمن من أهل الاسكندرية ؛ وابن الصيّاد الذي قال عنه عماد الدين : « كان سريع الخاطر في النظم لا يقف ولا يتضع فيه علمه ويغريه طلائع بجلسائه يهجوهم وكانوا يتعرضون له ، وابن قادوس الذي بلغ من

تكريم طلائع له أن حضر إلى منزله عند وفاته ومشى في جنازته حتى واراه التراب . . . وغيرهم كثيرون .

وإن عُمارة اليمني خير مثال لما كان يلقاه الشعراء من تشجيع الوزراء وما كان لهذا التكريم من أثر في أدبهم . فإن عمارة بالرغم من كونه سنياً شافعياً لم يمنع ابن رزّيك من العطف عليه وتقريبه له حتى صار من ألصق الأصحاب به.

وقد انهالت عليه صلات الوزير . ممّا جعل عمارة ينطق بكل قوته ومقدرته الشعرية في الإشادة بذكر الفاطميين والانتصار لهم والدفاع عنهم حتى بعد القضاء على دولتهم مما أدّى به الى القتل بأمر من «صلاح الدين الأيوبي» .ولقد بلغ من حب ابن رزّيك لعمارة أنه حاول جاهداً ضمه إلى المذهب الشيعي وبذل له المغريات ولكن عمارة رفض ذلك وإن لم يؤثر هذا في العلاقة بينه وبين ابن رزّيك . بل ظلّت الصداقة بينهما على قوتها . وظلّ عمارة وفيّاً لآل رزّيك حتى بعد القضاء على دولتهم ومحاولة الوزير شاور إغداق النعم عليه وتقريبه له وضمه إلى حاشيته ، ومن أروع ما قاله عمارة في رثاء « طلائع » أو « الصالح » .

تنكّد بعد الصالح الدهر فاغتدت
مجالس أيامي وهنّ غيوبُ

أيجدبُ خدي من ربيــع مدامعي
وربعي من نعمى يديه خصيبُ

ويصف عماد الدين الأصفهاني حالة الأدب والأدباء بعد الصالح فيقول :

« انكسفت شمس الفضائل الزاهرة ، ورخص سعر الشعر ، وانخفض علم العلم ، وضاق فضاء الفضل ، واتسع جاه الجهل ، وانحلّ نظام أهل النظم ، وانتثر عقد ذوي النثر ، واستشعر الفاقة الشعراء ، وعدم البلغة البلغاء ، وعدّ الفضل فضولاً ، والعقل عقولاً ، وطلب المهذّب مذهباً في الذهاب محبوباً ، ومركباً في النجاة مجنوباً ، وأضلّ الرشيد طريق رشده فاحترّق بشرار شر شاور من بعده ، وعاد ابن الصيّاد إلى حرفة أبيه ، وطفق فضلاء الحضرة يغيبون لحضور الناقصين ، فلم تزل مصر بعده منحوسة الحظ ، منسوخة الجد منكوسة الراية معكوسة الآية » .

عودة الى الماضي

نسينا أن نذكر في حينه وفي مكانه أن الوزير ابن السلاّر ... حاول أن يتحالف مع نور الدين وكان الوسيط بينهما « أسامة ابن منقذ » وكان الصليبيون قد شرعوا في عمارة غزة ليحاصروا عسقلان فأرسل ابن السلاّر أسامة ومعه الأموال والهدايا وأمر أن يطلب من نور الدين منازلة طبرية ، واشترط ابن السلاّر أنه في حالة موافقة نور الدين يعطيه أسامة ما معه من مال ،فإن امتنع فعلى أسامة أن يجنّد بما معه من مال جنداً يتوجه به إلى عسقلان ليقاتل الصليبيين ؛ فلما وصل أسامة إلى بصرى — حوران وجد نور الدين يتهيأ لمحاصرة دمشق . لذلك اعتذر عن السير معه خوفاً من أهل دمشق فاستأذن أسامة في أن يجنّد قوماً من الجند على أن يرسل معه نور الدين رجلاً من أصحابه في ثلاثين فارساً حتى يعلم الصليبيون بقبوله الحلف مع مصر ، فأذن له في ذلك . وسيّر معه الأمير الياروقي في ثلاثين فارساً .

وسار أسامة وسط بلاد الصليبيين دون أن يتعرض له أحد حتى وصل عسقلان . فجمّع الصليبيون قواتهم لحصارها . ولكن أسامة تمكن من ردهم وظلّ بعسقلان أربعة أشهر يهاجم بلادهم القريبة يأسر ويقتل حتى جاءه كتاب ابن السلاّر يستدعيه إلى مصر . فترك بها أخاه عز الدولة أبو الحسن الذي قتل وهو ينازل غزّة .

ولم يأل ابن السلاّر جهداً في محاربة الصليبيين ، فجهّز في سنة ٥٤٦ هـ . أسطولاً أنفق عليه ثلاثمائة ألف دينار للانتقام من الصليبيين لتخريبهم الفرما سنة ٥٤٥ هـ . وأقلع الأسطول في ربيع الأول إلى يافا وعكا وصيدا وبيروت وطرابلس حيث أسروا عدة من مراكب الصليبيين وقتلوا خلقاً كثيراً ، وبلغ ذلك مسامع العادل نور الدين فعزم على قصد الصليبيين ومحاربتهم في البر ، ولكنه شغل بأمور دمشق، ولو أن نور الدين تمكّن من الخروج لحرب الصليبيين في ذلك الوقت لكانَ ذلك قد غيّر وجه التاريخ .

واهتمّ ابن السلاّر اهتماماً كبيراً بأمر عسقلان آخر معقل للفاطميين في الشام فقوّى حصونها وأمدها بالرجال والأموال والأقوات ، وكان يبدّل حاميتها كل ستة أشهر حتى تقوّى على صد الصليبيين ، ولكن بعد أن قتل ابن السلاّر سنة ٥٤٨ هـ.

بطل سير الجنود إلى عسقلان . فانتهز الصليبيون الذين كانوا محاصرين في عسقلان الفرصة فقالوا لأهلها :

« سلطانكم قتله ابنه وأنتم تقاتلون لمن ؟ فلما صحّ الخبر عندهم وهنوا لانقطاع المدد حتى أخذها الصليبيون وقووا بأخذها ، ويذكر أن أهل عسقلان أرسلوا إلى نور الدين وإلى مجير الدين صاحب دمشق يستصرخانهما . فاتفقا على النزول في « بانياس » وقصدهم إشغال الصليبيين النازلين على عسقلان . ولكن الخلافات دبّت بينهم فعاد نور الدين إلى « حمص » ومجير الدين إلى دمشق . ولما طال انتظار أهل عسقلان للمدد من مصر دون جدوى . اضطروا لتسليمها للصليبيين وكان فيها من الذخائر والعدد والغلال ما لا يحصى . وهكذا فقدت مصر الفاطمية نتيجة لجريمة عباس وابنه آخر معقل لها في ديار الشام .

وقد رفع طلائع بن رزّيك علم الجهاد من جديد . فاهتم بإرسال الأساطيل والسرايا لمهاجمة الصليبيين . فجهّز في سنة ٥٥٠ هـ . أسطولاً هاجم ميناء صور حيث ظفر بمراكب الصليبيين وعاث في الميناء قتلاً وأسراً . وعقد الصليبيون مع طلائع بعد هذه المعركة هدنة استمرّت حتى سنة ٥٥٣هـ. شرع طلائع بعدها في إرسال الحملات البريّة والبحرية للإغارة على

الصليبيين . فأول سرية جهزها في السابع والعشرين من جمادى الأولى وقد سارت إلى غزّة وعسقلان حيث نهبت أطرافهما وعادت بغنائم كثيرة ، وأعقب ذلك الحملات المظفرة طوال سني ٥٥٢ و ٥٥٣ و ٥٥٤ هـ . كما حصلت اتصالات بين طلائع ونور الدين يداً واحدة . وكتب له طلائع عدة قصائد يحرّضه فيها على الجهاد . فأرسل نور الدين رسولاً سنة ٥٣٢هـ. وآخر سنة ٥٥٣هـ . كما قدم رسول الصليبيين يطلب الصلح ، وقد عاد طلائع رسول نور الدين بجواب رسالته هدية من الأسلحة ما قيمته ثلاثون ألف دينار ومن العين ما مبلغه سبعون ألف دينار تقوية له على حرب الصليبيين ، وقد اهتمّ الصليبيون بمهادنة طلائع فأرسلوا رسولاً آخر سنة ٥٥٤هـ. ومعه هدية وعرض بقيام هدنة بين الطرفين . إلاّ أن رسولاً من قبل نور الدين وصل إلى مصر يخبر بأنه متوجه لمهاجمة الصليبيين وطلب خروج حملة من مصر تشغلهم فبادر طلائع بتجهيز ستة آلاف وخمسمائة فارس لشن الغارات على غزة . كما أرسل أسطولاً في البحر لمهاجمة العدو وسفنه .

ويبدو أنه كان هناك اتفاق بين ابن رزّيك ونور الدين على أنه بعد طرد الصليبيين من الشام يجري تقسيمها بين نور الدين ومصر . ويظهر ذلك من قصيدة للمهذّب بن الزبير

أحد أصدقاء ابن رزّيك المقربين إذ يشير في قصيدته هذه إلى تلك الوقعة وإلى هذا الاتفاق . فمنها :

وأعدت رسل ابن القسيم إليه في
شعبان كيمـــا يلام الشعبان
والفأل يشهد باسمه أن سوف يغ
دو الشام وهو عليكما قسمـــان
وأراك من بعـــد الشهيد أباً له
وجعلتـــه من أقربِ الإخوان

ولكن برغم اهتمام الصالح بقيام هذا التحالف وكتبه المتلاحقة لحث نور الدين على العمل يداً واحدة والقيام بمجهود مشترك ضد العدو . إلا أن ذلك لم يأتِ بالغرض المنشود ، إمّا لأن نور الدين لم يكن يثق تماماً في عروض مصر ، أو لأن القدر لم يمهل طلائع إذ قتل بعد قليل ، ومات طلائع وهو يتأسف لعدم تمكنه من فتح بيت المقدس وطرد الصليبيين .

الوصي الرابع : العاضد

اسمه : العاضد لدين الله . . . لقبه : عبد الله . . . كنيته : أبو محمد . ولد لعشر بقين من المحرّم سنة ٥٤٦ هـ . وكان عمره يوم بويع بالوصاية نحو إحدى عشرة سنة . مات سنة ٥٦٧ هـ . وكان له من العمر إحدى وعشرون سنة إلاّ عشرة أيام . . . منها إحدى عشرة سنة وستة أشهر وسبعة أيام .

كان العاضد كريماً لين الجانب مرّت به مخاوف وشدائد ، ويعتبر آخر الفاطميين في مصر . . . إذ بعده حكم الديار المصرية « صلاح الدين الأيوبي » وأقام الخطبة والدعاء للمستضيء بالله العباسي .

ذكر التاريخ :

إن طلائع بن رزّيك هو الذي قام بتدبير الأمور اثر مبايعة العاضد لدين الله وظلّ حتى قتل سنة ٥٥٦ هـ. كما ذكرنا ،

فقام من بعده ابنه « رزيك بن طلائع » وحسنت سيرته فعزل « شاور بن مجير السعدي » عن ولاية قوص ، فلم يقبل العزل وحشد وسار على طريق الواحات في البريّة إلى « تروجة » فجمّع الناس وسار إلى القاهرة فلم يثبت رزّيك وفرّ فقبض عليه بأطيفح .

واستقر شاور في الوزارة لأيام خلت من صفر سنة ثمان وخمسين وخمسمائة فأقام إلى أن ثار « ضرغام » صاحب الباب ، ففرّ منه إلى الشام .

واستبدّ ضرغام بالوزارة فقتل امراء الدولة وأضعفها بسبب ذهاب أكابرها ، فقدم الصليبيون ونازلوا مدينة بلبيس مدة ودافعهم المسلمون عدة مرات حتّى عادوا إلى بلادهم بالساحل ، ورجع العسكر إلى القاهرة وقد قتل منهم خلق كثير ، فوصل شاور بعساكر الشام في جمادى الآخرة سنة ٥٥٩ هـ . فحاربه ضرغام على بلبيس بعساكر مصر ، وكانت بينهم معارك انهزموا في آخرها ، وغنم شاور ومن معه سائر ما خرجوا به وكان شيئاً جليلاً فسّروا بذلك ، وساروا إلى القاهرة ، فكانت بين الفريقين حروب آلت إلى هزيمة ضرغام وقتله في شهر رمضان .

فاستولى شاور على الوزارة مرة ثانية واختلف مع « الغز » القادمين معه من الشام ، وكانت له معهم حروب آلت إلى أن شاور كتب إلى « مرّى » — ملك الفرنج — يستدعيه إلى القاهرة ليعينه على محاربة « شيركوه » ومن معه من الغز ، فحضر وقد صار شيركوه في مدينة بلبيس ، فخرج شاور من القاهرة ونزل هو ومرّى على بلبيس ، وحصرا شيركوه ثلاثة أشهر ثم وقع الصلح فسار شيركوه بالغز إلى الشام ورحل الفرنج ، وعاد شاور إلى القاهرة في سنة ٥٦٠ هـ . فلم يزل إلى أن قدم شيركوه من الشام بالعساكر مرة ثانية في ربيع الآخر ، فخرج شاور من القاهرة إلى لقائه ، واستدعى مرّى — ملك الفرنج ، فسار شيركوه على الشرق وخرج من أطيفح فسار إليه شاور بالافرنج وكانت له معه المعركة المشهورة فسار شيركوه بعد المعركة مع الأشمونيين وأخذ الاسكندرية وعاد شاور إلى القاهرة .

وخرج شيركوه من الاسكندرية بعد أن استخلف عليها ابن أخيه « صلاح الدين بن يوسف بن أيوب » ولم يزل يسير من الاسكندرية إلى قوص وهو يجبي البلاد فخرج شاور من القاهرة بالإفرنج ونازل الاسكندرية فبلغ شيركوه ذلك فعاد من قوص إلى القاهرة وحاصرها . ثم كانت أمور آخرها مسير

شيركوه وأصحابه من أرض مصر إلى الشام في شوال وقد طمع الفرنج في البلاد ، وتسلموا أسوار القاهرة وأقاموا فيها « شحنة » أي رئيس شرطة ومعه عدة من الفرنج لمقاسمة المسلمين ما يتحصل من المال .

وفحش أمر شاور وساءت سيرته وكثرت رغبته للدماء وإتلافه للأموال . فلما كان في سنة أربع وستين أي سنة ٥٦٤ هـ . تمكن الفرنج في القاهرة ، وجاروا في حكمهم بها ، وركبوا المسلمين بأنواع الإهانة ، فسار « مُرّى » يريد أخذ القاهرة ونزل على مدينة بلبيس وأخذها عنوةً ، فكتب « العاضد » إلى « نور الدين محمود بن زنكي » صاحب الشام يستصرخه ويحثه على نجدة الإسلام وإنقاذ المسلمين من الفرنج ، فجهّز « أسد الدين شيركوه » في عسكر كثير وجهّزهم وسيّرهم إلى مصر ، وقد أحرق شاور مدينة مصر كما تقدّم ، ونزل « مُرّى » — ملك الفرنج — على القاهرة وألحّ في قتال أهلها حتّى كاد أن يأخذها عنوة ، فسيّر إليه شاور وخادعه حتّى رضي بمال يجمعه له ، فشرع في جبايته ، وإذا بالخبر يرد بقدوم شيركوه ، فرحل عن القاهرة في سابع ربيع الآخر ، ونزل شيركوه على القاهرة بالغز ثالث مرة ، فخلع عليه العاضد وأكرمه ، ولكن شاور أخذ يفتك بالغز على عادته ، فكان

من قتله ما ذكر في موضعه وذلك في السابع عشر من ربيع الآخر المذكور .

وتقلّد شاور وزارة العاضد وقام بالأمر شهرين وخمسة أيام ، ومات في الثاني والعشرين من جمادى الآخرة .

وعندئذٍ فوّض الوزارة « لصلاح الدين يوسف بن أيوب » فساس الأمور ودبّر لنفسه ، فبذل الأموال ، وأضعف العاضد باستنفاد ما عنده من المال ، فلم يزل أمره في ازدياد وأمر « العاضد » في نقصان ، وصار يخطب من بعد العاضد للسلطان محمود نور الدين ، وأقطع أصحابه البلاد ، وأبعد أهل مصر وأضعفهم ، واستبدّ بالأمور ، ومنع العاضد من التصرف حتّى تبيّن للناس ما يريده من إزالة الدولة ، إلى أن كان من وقعة العبيد ما ذكرنا فأبادهم وأفناهم ، ومنذ ذلك الوقت تلاشى العاضد وانحلّ أمره ، ولم يبق له سوى إقامة ذكره في الخطبة فقط .

هذا . . . وصلاح الدين يوالي الطلب منه في كل يوم ليضعفه ، فأتى على المال والخيل والرقيق وغير ذلك ، حتّى لم يبق عند العاضد غير فرس واحد فطلبه منه وألجأه إلى إرساله ، وأبطل ركوبه من ذلك الوقت ، وصار لا يخرج من القصر البتة ، وتتبّع صلاح الدين جند العاضد ، وأخذ دور الأمراء

واقطاعاتهم فوهبها لأصحابه ، وبعث إلى أبيه وأخوته وأهله فقدموا من الشام عليه .

فلمّا كان في سنة ٥٦٦ هـ . أبطل المكوس في ديار مصر ، وهدم دار المعونة بمصر وجعلها مدرسة للشافعية وأنشأ مدرسة أخرى للمالكية ، وعزل قضاة الشيعة . وقلّد القضاء « صدر الدين بن درباس الشافعي » وجعل إليه الحكم في إقليم مصر كله ، وعزل سائر القضاة واستناب قضاة شافعية . فتظاهر الناس من تلك السنة بمذهب مالك والشافعي . واختفى مذهب الشيعة إلى أن نسيَ من مصر .

وأخذ صلاح الدين في غزو الفرنج ، فخرج إلى الرملة ، ثم سار إلى ايلة ونازل قلعتها حتى أخذها من الفرنج ، وسيّر توران شاه فأوقع بأهل الصعيد وأخذ منهم ما لا يمكن وصفه كثرةً وعاد ، فكثر القول من صلاح الدين وأصحابه في ذم العاضد وتحدثوا بخلعه ، وإقامة الدعوة العباسية بالقاهرة ومصر .

ثم قبض على سائر من بقي من أمراء الدولة ، وأنزل أصحابه في دورهم في ليلة واحدة ، فأصبح في البلد من العويل والبكاء ما يذهل . وتحكّم أصحابه في البلد بأيديهم ، وأخرج اقطاعات سائر المصريين لأصحابه ، وقبض على ممتلكات

العاضد ، ومنع عنه سائر مواده ، وقبض على القصور ، وسلّمها إلى الطواشي « بهاء الدين قراقوش » فضيّق على أهل القصر ، وصار العاضد معتقلاً تحت يده ، وأبطل من الآذان « حي على خير العمل » وأزال شعار الدولة ، وخرج بالعزم على قطع خطبة العاضد ، فمرض أخيراً ومات في ليلة عاشوراء سنة ٥٦٧ هـ . بعد أن قطع صلاح الدين اسمه من الخطبة واستعيض عنه باسم « المستضيء بالله » العباسي .

ويعتبر العاضد آخر الفاطميين . . . الذين كانت مدتهم منذ « عبيد الله المهدي » إلى آخر يوم من حياة العاضد — مائتي سنة واثنتين وسبعين وبضعة أيام منها مائتان وثماني سنين في القاهرة .

وزراء العاضد

١ – رزّيك بن طلائع » :

١٩ رمضان سنة ٥٥٦ هـ . حتى ٢٢ من المحرّم سنة ٥٥٨هـ.

هو ابن طلائع . تولّى الوزارة بوصية أبيه . يقول المؤرخ عمارة اليمني في ترجمته :

إنّ الله لم يمهله إلاّ مدة يسيرة ، وكانت أفعال الخير فيها كثيرة ، وذلك أنه سامح الناس بالبواقي والحسابات القديمة ، وأسقط من يوم الظلم مبالغ عظيمة وقام عن الحاج بما يستأديا منهم أمين الحرمين ، وسيّر على يد الأمير شمس الخلافة إمّه خمسة عشر ألفاً أو دونها إلى أمير الحرمين عيسى بن أبي هاشم برسم إطلاق الحاج وظفر بقتله أبيه ظفراً عجيباً بعد تشتيتهم في البلاد ، وتمّ زفاف أخته إلى العاضد في عهده ، وحفر سرداباً تحت الأرض يوصل فيه دار الوزارة إلى قصر الخلافة .

وترامت في أيامه الحال بالأمير عز الدين حسام قريبه ، وعظم صيته واستولى على تدبير كثير من أمور عمه فارس المسلمين وصهره سيف الدين ، وعظم غلمان أبيه عن الوقوف عند أوامره ؛ ولم يشهد له من البأس إلاّ خروجه بعد عمه وسيف الدين في نوبة غارة الافرنج على أعمال الحوف ، فإنه أغذّ السير خلف الافرنج إلى أبي عروق ، والموقف الثاني إدراكه لبهرام الغزي حين نافق طالباً الصعيد ، فإنه سرى فيمن خفّ معه من الجيش حتّى أدرك الغز عند الفجر فقتلهم جميعاً .

وقد خالف رزّيك وصية والده وعزل شاور عن ولاية الصعيد فخرج عليه وقدم من الصعيد عن طريق الواحات إلى أن وصل إلى تروجه بالقرب من الاسكندرية فدخلها يوم الأحد الثاني والعشرين من المحرّم سنة ٥٥٨ هـ .

ذكر التاريخ :

إنّ رزّيك كان بخلاف أبيه محباً للخير ، وكارهاً جمع الأموال ، ولكنه لم يستمر طويلاً في الوزارة ، وفي أيامه دخلت البلاد في آخر أطوار الضعف والانهيار نتيجة الصراعات في سبيل السيطرة على الحكم ، إذ ثار شاور عليه واستولى على

الوزارة منه ، دون صعوبة لأن غلمان أبيه لم يمتثلوا لأمره ، وانضمّ ضرغام وغيره من وجوه الأمراء والتحقوا بشاور مما كان له أكبر الأثر في القضاء على بني « رزيك » .

٢ – « شاور » :

٢٢ من المحرّم سنة ٥٥٨ هـ . حتّى شهر رمضان من السنة .

هو أبو شجاع شاور بن مجير بن نزار بن عشائر بن شاش ابن مغيث بن حبيب بن الحارث بن ربيعة بن مخيس بن أبي ذؤيب عبد الله وهو والد « حليمة » مرضع الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) .

أول وزير عربي الجنس يلي الوزارة من وزراء السيوف ، وكان طلائع بن رزّيك قد ولاّه الصعيد الأعلى ، ثم ندم على توليته ، ولكنه أوصى ابنه بعدم عزله لعلمه بمدى قوته ؛ ولكن ابنه خالف وصيته وعزله ، فثار عليه شاور كما رأينا واستطاع أن يحل محله في الوزارة ويعتقله ثم يأمر بقتله على يد « طي بن شاور » .

يقول التاريخ :

إنه لمّا وزر شاور جلس في دار الذهب على شط الخليج

فانثالت عليه وعلى ولديه « طي والكامل » أموال بني رزّيك وودائعهم من عند الناس حتّى كان في الناس من يتبرع بما عنده ، وافترقت أمراء البرقية ، فضرغام ومن معه حزب والظهير مرتفع وعين الزمان وابن الزبير ومن معهم حزب ، فأما ضرغام فكان أظهر الحزبين لأنه نائب الباب ولأنه من نفسه وأخوته وأصهاره في جيش عظيم ، وأمّا نظراؤه فاختصوا بطي بن شاور فكاثروه ولازموه إلى أن كان من خروج شاور إلى الشام وقتل ولده طي وتولي ضرغام الوزارة .

وذكر التاريخ أيضاً :

إن أخلاق شاور في الوزارة كانت مستورة باستمرار السلامة والطاعة والاستقامة ، ولم يكن فيها أقبح من قتل « رزّيك » فإنها سوّدت ما ابيض من عالي قدره وأعربت عن ضيق عطفه وحرج صدره ، فأما كرمه فكان إليه المنتهى ، ولم يكن يمسك شيئاً ولا يكنزه ، وأما الحماسة وشدة البأس فهو في موطن الموت شديد الثبات سديد الوثبات .

في رمضان سنة ٥٥٨ هـ . ثار ضرغام على شاور وقتل ولده طي فخرج شاور إلى الشام لاجئاً إلى نور الدين ، وفي سنة ٥٥٩ هـ . عاد شاور إلى مصر بعد أن زوّده نور الدين

بجيش بقيادة « شيركوه » فاستطاع هزيمة ضرغام وقتله في أواخر جمادى الآخرة سنة ٥٥٩ هـ . وبعد ذلك تسلّم الوزارة من رجب سنة ٥٥٩ هـ . حتى ١٧ ربيع الآخر سنة ٥٦٤ هـ . ولم يكد يستقر في الوزارة حتى تنكّر لشيركوه وأخلّ باتفاقه مع نور الدين ، واستعان بالصليبيين . وانتهى الأمر أخيراً باحتلال شيركوه مصر في ربيع الآخرة سنة ٥٦٤ هـ . وقتل شاور في السابع عشر من الشهر المذكور . وقد وصف الشاعر عمارة هذا الواقع بهذين البيتين :

ألا أنّ حدّ السيف لم يبقَ خاطراً
من الناس إلاّ حـائراً يتردّد
ذعرت الورى حتى لقد خاف مصلح
على نفسه اضعاف ما خاف مفسد

ثم أضاف على ذلك قوله عن السنوات التي قضاها شاور بالحكم بأنها :

كثيرة الوقائع والنوازل . وأن فيها انكشفت صفحاته وأحرقت لفحاته وأغرقت نغماته . وغضّه الدهر وعضّه وأوجعه الثكل وأمضّه . وبان غمره وثماره وجمره ورماده . ولم يجف من الأنكاد لبده . ولا صنا من الاقذاء ورده ، وما

هو إلاّ أن تسلمها بالراحة . وسلمت له الهموم عوضاً عن الراحة ، وحفلت هذه الأيام علاوة على هجوم الغز والافرنج بثورة قبيلة « لواته » . ويزيد عمارة على قوله :

« لم يربّ أحد رجال الدولة مثل ما رباهم طلائع ، ولا أفنى أعيانهم مثل ضرغام ولا أتلف أموالهم مثل شاور » فشاور أغرق البلاد في بحر من الفوضى وأحرقت الفسطاط وتقاتل عليها نور الدين والفرنج حتّى تمكّن شيركوه قائد نور الدين من الاستيلاء عليها وقتل شاور ، وأصبح بعد ذلك هو وزير « العاضد » .

٣ — « ضرغام بن عامر اللخمي » :

رمضان سنة ٥٥٨ هـ . حتّى آخر جمادى الآخرةسنة٥٥٩هـ.

من أمراء الدولة وكبار قوادها ، وكان طلائع بن رزّيك قد أنشأ في وزارته أمراء يقال لهم « البرقية » وجعل ضرغاماً مقدمهم ، فترقّى في الخدمة حتّى صار صاحب الباب ، ولما طرد شاور ولي الوزارة مكانه وتلقب (بالملك المنصور) .

يقول التاريخ :

كانت مدة وزارته تسعة أشهر وهي مدة الحمل ، وضرغام

أشهر من أن يوصف . كان فارس عصره ، وفي الكتابة وكمال الصورة وجمال المحاضرة وحيد دهره ، وكان عاقل الكرم لا يضعه إلاّ في سمعة ترفعه أو مداراة تنفعه ، إلاّ أنه كان أذناً مستحيلاً على أصحابه ، وإذا ظنّ بإنسان شراً جعل الظن يقيناً ، وبعد زوال ما سبق إلى خاطره ، وبلي من أخيه فارس المسلمين همّام بقذى الناظر وشجا الحناجر ، وفي أيامه ذهبت أمراء البرقيّة قتلاً بسيفه صبراً ، وهم : « صبح بن شاهنشاه » والظهير مرتفع ، وعين الزمان ، وعلي بن الزبير ، وأسد الغازي وأقاربهم وهم نحو من سبعين أميراً سوى أتباعهم ، فذهبت لذلك رجال الدولة واختلّت أحوالها ، فضعفت بذهاب أكابرها ، وفقد أصحاب الرأي والتدبير .

وأخيراً :

تمكّن شاور من هزيمته وقتله في أواخر جمادى الآخرة سنة ٥٥٩ هـ . ومن الحوادث الّتي وقعت في عهده :

إنه اختلف مع « عموري » ملك بيت المقدس على المبلغ السنوي الذي كان يدفعه الوزراء للفرنجة لقاء عدم إقدامهم على غزو مصر . مما دفع ملك بيت المقدس إلى غزو مصر فأقدم ضرغام على فتح سدود النيل وقت الفيضان ، فأغرقت

البلاد واضطرّ عموري إلى العودة ، ولكن ضرغاماً لما علم بالتجاء شاور إلى نور الدين وطلب معونته شعر بالندم وبضياع الفرصة لعدم ارتباطه بالصليبيين فأسرع إلى طلب هدنة دائمة وزاد في مقدار الجزية ، مما جعل نور الدين يتدخل في شؤون مصر بإرساله حملة مع شاور بقيادة شيركوه كما ذكرنا .

٤ – « شيركوه العاضدي » :

١٧ من ربيع الثاني سنة ٥٦٤ هـ . حتّى وفاته ٢٢ من جمادى الثانية من السنة .

هو كردي الأصل ، ومن أخلص رجال نور الدين ، تولّى الوزارة للعاضد بعد مقتل شاور . . . اشتهر بأنه من القواد البارزين . ذكر التاريخ :

إنه لمّا انتظمت الأمور لأسد الدين بالديار المصرية . . . أقطع البلاد للعساكر التي قدمت معه ، وكان صلاح الدين ابن أخيه هو الذي يقرر الأمور وبيده زمام الأمر والنهي .

٥ – « صلاح الدين بن يوسف بن أيوب »

٢٥ من جمادى الآخرة – سنتان ونصب كوزير ثم استقل بالملك .

من الشخصيات الخالدة في التاريخ عامة . والتاريخ الإسلامي خاصة . اشتهر بشجاعته وقدرته كقائد . كما اشتهر بإنسانيته التي لم يختلف فيها حتى أعداؤه . وقد قضى صلاح الدين الجانب الأكبر من حكمه في توحيد الجبهة الإسلامية ضد الصليبيين . والمراجع العربية والأجنبية حافلة بأروع الأعمال . وأجل المواقف التي تنسب إليه .

ولد في تكريت . . . والده نجم الدين أيوب وكان قائداً كردياً في خدمة خلفاء بغداد العباسيين . ثم التحق بخدمة الأتابك زنكي وابنه نور الدين من بعده . وقد اشترك صلاح الدين في حملات عمه الثلاث على مصر واشتهر ذكره في معركة البابين وفي الدفاع عن مدينة الاسكندرية . وقد حاولت بعض المراجع العربية أن تبرز موقفه ، ورفضه الالتحاق بحملة عمه الثالثة ، وأنه جاء مرغماً حتى يتم ما أراده القدر له .

بعد وفاة شيركوه وقع اختيار العاضد عليه ليتولى الوزارة .

ويذكر التاريخ :

إن الوصية كانت إليه من عمه أسد الدين شيركوه ، وإنه لمّا فوض إليه الأمر تاب عن شرب الخمر ، وأعرض عن أسباب اللهو ، وتقمّص لباس الجد والاجتهاد وما عاد وما زاد إلاّ جداً إلى أن توفاه الله برحمته ، ويذكر أنه كان يقول :

« لمّا يسّر الله تعالى الديار المصرية علمت أنه أراد فتح الساحل لأنه أوقع ذلك في نفسي » .

كان موقف الوزير صلاح الدين دقيقاً ، فقد وجد نفسه فجأة وبلا موعد وزيراً لخليفة شيعي ونائباً لملك سني يضغط عليه للقضاء على تلك الدولة الشيعية والعودة بمصر إلى المذهب السني في ظل الخلافة العباسية .

استطاع صلاح الدين أن يكسب ود الأهلين بكرمه وشخصيته العظيمة ، واستعان بمن يثق بهم في إدارة شؤون الحكم ، ولمّا قامت العناصر السودانية بثورتها استطاع بمجهود شاق أن يقضي عليها ، وبذلك أصبح القصر في قبضته ، كما تمكن عقب هذه الثورة أن يرد هجمات الصليبيين على دمياط ، وانتصر عليهم انتصاراً رائعاً واضطرهم إلى طلب الصلح ، وقد كانت هـــذه الحملة نقطة تحول في الصراع مع الصليبيين .

فمنذ ذلك الوقت أصبحت مملكة القدس تقف موقف الدفاع بدلاً من الهجوم الذي كان طابعها من قبل .

ذكر التاريخ :

إن صلاح الدين تمكن من أن يضع يده لا على ثروة البلاد فحسب . بل صادر جميع ما وجده في قصور الخلفاء الفاطميين من تحف وجواهر وسلاح . فكان كما يقول المقريزي :

ما لا يفي به ملك الأكاسرة ولا تتصوره الخواطر الحاضرة ولا يشتمل على مثله في الممالك العامرة ولا يقدر على حسابه إلاّ من يقدر على حساب الخلق في الآخرة .

ومهما يكن من أمر فإن صلاح الدين استطاع أن يثبت حكمه . واستمال إليه القلوب وجمّع حوله الناس . وتمكّن من القضاء على ثورة خطيرة قام بها السودان بتشجيع من العاضد ورجاله . وبهذا ضعف أمر العاضد تماماً . ثم أخذ « صلاح الدين » ينظم الأمور ويقوي المذهب السني . ويضعف المذهب الشيعي الفاطمي .

أجل . . . قبل تسلم صلاح الدين شؤون الوزارة كان الصراع على أشده بين شاور وضرغام كما ذكرنا وكان هنالك

تنافس بين الصليبيين ونور الدين على امتلاك مصر وقد عانت مصر من ذلك الصراع الكثير حتّى أن شاور أمر بإحراق الفسطاط . كما أمر بإحراق الأسطول عندما نزل الإفرنج على بركة الحبش قرب القاهرة ، ونهبهم العبيد فيما نهبوا ، ولما دخل شيركوه البلاد أصبحت الجند من الغز إلى جانب الجند المصريين . وذكر التاريخ :

إنه كان هناك من طوائف الجند المصرية في ذلك الوقت « الريحانيّة » و « الفرحيّة » من السودان ، و « الجيوشيّة » و « الوزيرية » والأرمن . وقد تجمّع من هؤلاء ومن العامة نحو من خمسين ألفاً لقتال صلاح الدين بعد قتله مؤتمن الخلافة جوهر أحد الأستاذين المحنّكين بالقصر ، والذي كان يتآمر مع الصليبيين ضد صلاح الدين . وقد استطاع صلاح الدين القضاء على الثائرين قضاء مبرماً سواء منهم العبيد والأرمن حتّى لم يبق منهم أحد .

خاتمة المطاف

عندما نصل إلى آخر هذا الجزء العاشر من الموسوعة التاريخية للخلفاء الفاطميين نرى لزاماً علينا أن نذكّر بأنّا قد أتينا على مجمل تاريخ هؤلاء الخلفاء وعددهم ثمانية هم :

عبيد الله المهدي ، القائم بأمر الله ، المنصور بالله ، المعز لدين الله ، العزيز بالله ، الحاكم بأمر الله ، الظاهر لإعزاز دين الله ، المستنصر بالله .

واثنان اعتبرا غير شرعيين ودونما نص أمامي . فهما قد نصبا بقوة السلاح وقد كان عهدهما فاتحة لضياع الدولة الفاطمية وانهيارها وهما :

المستعلي بالله ، والآمر بأحكام الله .

وفي الجزء العاشر أيضاً وإتماماً للبحث قدمنا لمحة عن تاريخ أربعة وكلاء أو « أوصياء » جاءوا بعد الخليفتين المذكورين وهم :

الحافظ ، الظافر ، الفائز ، والعاضد .

ففي عهد العاضد كما ذكر انتهت الدولة الفاطمية باستيلاء صلاح الدين الأيوبي عليها وعلى مصر ، وبإعادتها على يديه إلى كنف الخلافة العباسية كما كانت أي قبل مائتي عام ونيف.

إننا لا نقول أكثر ما قلنا في هذه الدولة ونرى أنه من الضرورة غض الطرف عن الأخطاء التي ارتكبت وعن الوقائع التي حدثت في هذه الدولة وخاصة في أيامها الأخيرة ولكن لا بد من القول بأنها قد انقسمت إلى فرقتين هما :

« المستعلية — البهرة » التي اتخذت اليمن موطناً لها بعد سقوط الدولة في مصر ، فتحولت إلى دعوة دينية سرية صرفة ، وابتعدت عن أي نشاط سياسي حتى يومنا هــذا ، كما أنها انقسمت إلى عدة فرق .

وأما الثانية أي « النزارية » فقد لعبت دوراً سياسياً كبيراً في (ألموت — فارس) بعهد الحسن بن الصباح ومن جاء بعده . وظلت تشمل قوة كبيرة حتى قضى عليها « التتر »

أخيراً ، و « النزارية » نفسها لعبت دوراً بارزاً في الحروب الصليبية بعهد « سنان راشد الدين » في قاعدتها « مصياف » .

وبعد ذلك تحوّلت إلى قاعدة دينيّة لها مراكز في سورية وفارس وأفغانستان والهند وباكستان وأفريقيا ولكن ليس لها أي أثر في السياسة العالمية وهي منقسمة إلى عدد من الفرق .



فهرست الموضوعات

مصادر البحث التاريخية

تاريخ الدولة الفاطمية — حسن إبراهيم حسن ١٩٥٨

الفاطميون في مصر وأعمالهم السياسية والدينية ، حسن إبراهيم حسن ١٩٣٢

تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ، حسن إبراهيم حسن . ١٩٤٦

النظم السياسية بالاشتراك مع علي إبراهيم حسن ، حسن إبراهيم حسن . ١٩٣٩

عبيد الله المهدي بالاشتراك مع طه أحمد شرف . ١٩٤٥

المعز لدين الله بالاشتراك مع طه أحمد شرف . ١٩٤٧

كنوز الفاطميين ، زكي محمد . ١٩٣٧

تاريخ جوهر الصقلي ، علي إبراهيم حسن . ١٩٣٣

في أدب مصر الفاطمية ، محمد كامل حسين ١٩٥٠

الصليحيون ، حسين همذاني ١٩٥٥

الفنون الفاطمي في بلاد الشام والعراق ، محمد جمال سرور ،
١٩٥٧
مصر في عهد الدولة الفاطمية ، محمد جمال سرور ١٩٥٧
افتتاح الدعوة ، النعمان بن حيّون —
المجالس والمسايرات ، النعمان بن حيون —
الهمة في آداب أتباع الأئمة ، محمد كامل حسين ١٩٥٠
عيون الأخبار ، إدريس عماد الدين —
مجموعة الوثائق الفاطمية ، جمال الدين الشيّال ١٩٥٨
الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية ،
محمد عبد الله عنان . ١٩٣٧
نظم الفاطميين ورسولهم في مصر ، عبد المنعم ماجد ١٩٣٧
السجلات المستنصرية ، عبد المنعم ماجد . ١٩٥٤
الامام المستنصر بالله الفاطمي ، عبد المنعم ماجد . ١٩٦١
الحاكم بأمر الله الخليفة المفترى عليه، عبد المنعم ماجد ١٩٥٩
نظم الحكم في مصر الفاطمية ، مصطفى عطيه مشرفه ١٩٤٨
سيرة جعفر الحاجب ، و . إيفانوف . ١٩٣٠
صلة تاريخ الطبري ، غريب بن سعد —
كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة ، الباقلاني. ١٩٣٩
رسائل الحاكم بأمر الله كتب سنة ٤٠٨ ، (مخطوط بدار الكتب المصرية) .

فرق الشيعة   النوبختي
اتعاظ الحنفا بأخبار الائمة الفاطميين الخلفاء   المقريزي
عبقرية الفاطميين ، محمد حسن الأعظمي .   ١٩٦٠
نظام الوزارة في العصر الفاطمي – مقالة في مجلة الثقافة ،
جمال الدين الشيّال .   ١٩٥١
أصل الذمة في العصر الفاطمي ، مقالة في مجلة
المقتطف ، جمال الدين الشيّال .   ١٩٥٤
البيان المغرب في أخبار المغرب ، ابن عذارى .
سيرة الأستاذ جوذر الكاتب ، محمد كامل حسين ومحمد عبد
الهادي شعيرة .
أخبار ملوك بنو عبيد وسيرتهم ، فوندر ، ليدن .   ١٩٢٧
معجم البلدان   ياقوت الحموي
تاريخ الرسل والملوك   الطبري
تقويم البلدان   أبو الفداء
كتاب البلدان   اليعقوبي

المصادر الأجنبية

The Alleged - Founder of Ismaïlism - Bombay - W Ivanow - 1946 .

The Origins of Ismaïlism : B. Lewis .

The Quaddahid Legend : Abbas Hamdani .

Mémoires sur les Quarmates de Bahrein et les Fatimits - Leyden - 1886 (De Goeje)

Polimics on the origin of the Fatimis - Caliphs - (Prince - Mamour - London 1934) .

Fatimid - Degrees - Stern - S.M. London .

Quelques Chroniques Anciennes aux derniers Fatimides 1937 .

L'impérialisme des Fatimides et leur propagande (1942-1947) .

Essaie sur l'histoire des Ismailiennes de la Perse : (Defremery, M.C.)

Fragments relatif à la Doctrine des Ismailis Hamdani , Paris , 1874 .

Studies in The Early Persian Ismaïlism - Leyden - 1948 .

The rise of the Fatimids - (Calcuta,) 1942 .

A Guide to IsmaïliLiterature:London,1933.W.Ivanow

A short history of the Fatimid Khalifate - London (1923).

Description du Maghreb — Leiden 1860.

The letters of Al Mustansir — School of oriental of London 1934.

Enquête aux pays du Levant — « M. Barrès ».